

من مطبوعات الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

شرح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف العلامة
محمد خليل هراس
المدرس بكلية أصول الدين

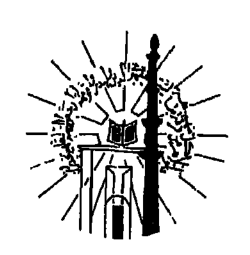
راجعه الأستاذ الكبير
عبد الرزاق عفيفي
رئيس أنصار السنة المحمدية

توزيع وإهداء
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمـــود ديـــاب

جراح بالمستشفى الملكي المصري



من مطبوعات الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

شرح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف العلامة
محمد خليل هراس
المدرس بكلية أصول الدين

راجعه الأستاذ الكبير
عبد الرازق عفيفي
رئيس أنصار السنة المحمدية

توزيع وإهداء
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الطبعة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد ان لا اله الا الله قيوم السموات والارضين واصلى واسلم على رسوله محمد خاتم الانبياء والمرسلين وبعد : فكتاب شرح العقيدة الواسطية لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد خليل هراس من أنفس الشروح ، واوضحها بيانا واخصرها عبارة ، الا أنه وقع فى الطبعة الاولى بعض أخطاء استدركت فى الطبعة الثانية بارشاد سماحة الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ مفتى المملكة العربية السعودية ، جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيرا وبذلك كانت هذه الطبعة ممتازة عن سابقتها . اسال الله أن ينفع بها وبشرحها المسلمين .

عبد الرازق عفيفى

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين ، نبيّنـا محمد ، عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

(اما بعد) فلما كانت العقيدة الواسطية لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله من اجمع ما كتب فى عقيدة اهل السنة والجماعـة مع اختصـار فى اللفظة ودقة فى العبارة ، وكانت تحتاج فى كثير من مواضعها الـى شرح يجلى غوامضها ويزيح الستار عـن مكنـون جواهرها ، ويكون مع ذلك شرحا بعيدا عن الاسهاب والتطويل والاملال بكثرة النقول حتى يلائم مدارك الناشئين ويعطيهم زبـدة الموضوع فى سهولة ويسـر .

فقد استخرت الله تبارك وتعالى ، واقدمت على هذا العمـل رغم كثرة الشواغل وزحمة الصوارف ، سائلا الله عز وجل ان ينفع به كل من قراه وان يجعله خالصا لوجهه انه قريب مجيب .

محمد خليل هراس

بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

اختلفت العلماء فى البسملة ، هل هى آية من كل سورة افتتحت بها ، أو هى آية مستقلة أنزلت ، للفصل بها بين السور ، وللتبرك بالابتداء بها ، والمختار القول الثانى .

واتفقوا على انها جزء آية من سورة النمل وعلى تركها فى أول سورة براءة لانها جعلت هى والانفال كسورة واحدة .

والباء فى بسم للاستعانة ، وهى متعلقة بمحذوف قدره بعضهم فعلا وقدره بعضهم اسما ، والقولان متقاربان وبكل ورد القرآن قال تعالى (اقرأ باسْم ربك) وقال (باسم الله مجريها) .

ويحسن جعل المقدر متأخرا ، لان اسم أحق بالتقديم ولان تقديم الجار والمجرور يفيد اختصاص الاسم الكريم بكونه متبركا به ، والاسم هو اللفظ الموضوع لمعنى تعيينا له أو تمييزا » .

واختلف فى أصل اشتقاقه ، فقيل انه من السمة بمعنى العلامة وقيل من السمو وهو المختار وهمزته همزة وصل ، وليس الاسم نفس المسمى كما زعم بعضهم ، فان الاسم هو اللفظ الدال ، والمسمى هو المعنى المدلول عليه بذلك الاسم .

وليس هو كذلك نفس التسمية فانها فعل المسمى ، يقال سميت ولدى محمدا مثلا .

وقول بعضهم ان لفظ الاسم هنا مقحم لان الاستعانة انما تكون بالله عز وجل لا باسمه ، ليس بشىء ، لان المراد ذكر الاسم الكريم باللسان كما فى قوله (سبح اسم ربك الاعلى) اى سبحه ناطقا باسم ربك متكلما به ، فالمراد التبرك بالابتداء بذكر اسمه تعالى — واسم الجلالة ، قيل انه اسم جامد غير مشتق ، لان الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها ، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له ، فهو كسائر

الاعلام المحضة التى لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها .

والصحيح انه مشتق ، واختلف فى مبدأ اشتقاقه ، فقيل من أَلِـهَ يَأْلَه أُلُوهَة وإِلاَهَة وأُلُوهِيَّة . بمعنى عبد عبادة ، وقيل من أَلِـهَ بكسر اللام يَألَه بفتحها أَلهـاً اذا تحير ، والصحيح الاول ، فهو إلَـه بمعنى مَألُوه اى معبود ، ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما : الله ذو الإلَهيَّة والعبودية على خلقه أجمعين ، وعلى القـول بالاشتقاق يكون وصفا فى الاصل ، ولكن غلبت عليه العَلَمية فتجرى عليه بقية الاسماء أخبارا واوصافا ، يقال : الله رحمن رحيم سميع عليـم ، كما يقال : الله الرحمن الرحيم الـخ .

والرحمن الرحيم اسمان كريمان من اسمائه الحسنـى دالان على اتصافه تعالى بصفة الرحمة ، وهى صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق بجلاله ولا يجوز القول بأن المراد بها لازمها كارادة الاحسان ونحوه كما يزعم المعطلة ، وسيأتى مزيد بيان لذلك ان شاء الله .

واختلفت فى الجمع بينهما فقيل المراد بالرحمن الذى وسعت رحمته كل شىء فى الدنيا ، لان صيغة فعلان تدل على الامتلاء والكثرة ، والرحيم الذى يختص برحمته المؤمنين فى الآخرة وقيل العكس .

وقد ذهب العلامة ابن القيم رحمه الله الى ان الرحمن دال على الصفة القائمة بالذات ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، ولهذا لم يجىء الاسم الرحمن متعديا فى القرآن ، قال تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) ولم يقل رحمانا ، وهذا أحسن ما قيل فى الفرق بينهما .

وروى عن ابن عباس انه قال : هما اسمان رقيقان احدهما ارق من الآخر ، ومنع بعضهم كون الرحمن فى البسملة نعتا لاسم الجلالة لانه علم آخر لله لا يطلق على غيره والاعلام لا ينعت بهـا .

والصحيح انه نعت له باعتبار ما فيه من معنى الوصفية فالرحمن

اسمه تعالى ووصفه ولا تنافى اسميتُه وصفيَّتَه ، فمن حيث هو صفــة جرى تابعا على اسم الله ، ومن حيث هو اسم ورد فى القرآن غيــر تابع بل ورود الاسم العلم كقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى)

(الحَمدُ لِلَّهِ) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة عَلَيَّ فهو أقطع أبتر ممحوق البركة » وورد مثل ذلك فى البسملة ولهذا جمع المؤلف بينهما عملا بالروايتين ولا تعارض بينهما فان الابتداء قسمان حقيقى واضافى والحمد ضد الذم يقال حمدت الرجل احمده حمدا ، ومحمدا ومحمدة فهو محمود وحميد ، ويقال حمد الله بالتشديد اثنى عليه المرة بعد الاخرى وقال الحمد لله .

والحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، نعمة كان أو غيرها ، يقال حمدت الرجل على أنعامه وحمدته على شجاعته ، واما الشكر فعلى النعمة خاصة ويكون بالقلب واللسان والجوارح قــال الشاعــــر :

أَفَادَتكُمُ النَّعمَاءُ مِنِّــي ثَلاثَــةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

وعلى هذا فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه ، يجتمعان فى الثناء باللسان على النعمة ، وينفرد الحمد فى الثنــاء باللسان على ما ليس بنعمة من الجميل الاختيارى ، وينفرد الشكر بالثناء بالقلب والجوارح على خصوص النعمة . فالحمد اعم متعلقا وأخص آلــة والشكر بالعكــس .

واما الفرق بين الحمد والمدح فقد قال ابن القيم ان الحمد اخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه فلابد فيه من اقتران الارادة بالخبر بخلاف المدح فانه اخبار مجرد ، ولذلك كان المدح أوســع

تناولا لانه يكون للحى وللميت وللجماد أيضا .

وال فى الحمد للاستغراق ، ليتناول كل افراد الحمد المحققة والمقدرة وقيل للجنس ومعناه أن الحمد الكامل ثابت لله ، وهذا يقتضى ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جماله ، اذ مَن عَدِمَ صفات الكمال فليس بمحمود على الاطلاق ، ولكن غايته ان لا يكون محمودا من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد الا من حاز صفات الكمال جميعها .

الرسول فى اللغة هو من بعث برسالة . يقال أرسله بكذا ، اذا طلب اليه تأديته وتبليغه ، وجمعه رسل بسكون السين ، ورسل بضمها وفى لسان الشرع انسان ذكر حر أوحى اليه بشرع وأمر بتبليغه ، فان أوحى اليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبى ، فكل رسول نبى ولا عكس فقد يكون نبيا غير رسول .

والمراد بالرسول المضاف الى ضمير الرب هنا محمد صلى الله عليه وسلم . والهدى فى اللغة : البيان والدلالة كما فى قوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) فان المعنى بَيَّنا لهم ، وكما فى قوله (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) .

والهدى بهذا المعنى عام لجميع الناس ، ولهذا يوصف به القرآن كما فى قوله تعالى (ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم) ويوصف به الرسول صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) .

وقد يأتى الهدى بمعنى التوفيق والالهام ، فيكون خاصا بمن يشاء الله هدايته ، قال تعالى (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام) ولهذا نفاه الله عن رسوله ، قال تعالى (انك لا تهدى

من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) .

والمراد بالهدى هنا كل ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من الاختيارات الصادقة والايمان الصحيح والعلم النافع والعمل الصالح .

والدين يأتى لعدة معان ، منها الجزاء كما فى قوله تعالى (مالك يوم الدين) ومنه قولهم (كما يدين الفتى يدان) .

ومنها الخضوع والانقياد ، يقال : دان له بمعنى ذل وخضع ، ويقال دان الله بكذا أو على كذا بمعنى اتخذه دينا يعبده به .

والمراد بالدين هنا جميع ما ارسل الله به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاحكام والشرائع ، اعتقادية كانت أم قولية أم فعلية ، واضافته الى الحق من اضافة الموصوف الى صفته ، اى الدين الحق ، والحق مصدر حق يحق اذا ثبت ووجب . فالمراد به الثابت الواقع ، ويقابله الباطل الذى لا حقيقة له .

اللام فى قوله ليظهره لام التعليل وهى متعلقة بأرسل ، وهو من الظهور بمعنى العلو والغلبة ، اى ليجعله عاليا على الاديان كلها بالحجة والبرهان . وال فى الدين للجنس ، فيدخل فيه كل دين باطل ، وهو ماعدا الاسلام . والشهيد فعيل ، وهو مبالغة من شهد ، وهو اما من الشهادة بمعنى الاخبار والاعلام ، أو من الشهادة بمعنى الحضور والمعنى (وكفى بالله شهيدا) مخبرا بصدق رسوله أو حاضرا مطلعا لا يغيب عنه شىء .

والمعنى الاجمالى لما تقدم ان جميع اوصاف الكمال ثابتة لله على أكمل الوجوه واتمها .

ومما يحمد عليه سبحانه نعمه على عباده التى لا يحصى أحد من الخلق عدها . واعظمها ارساله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين ، وبشرى للمتقين ، ليظهره على جميع الاديان بالحجة والبرهان ، والعز والتمكين والسلطان ، وكفى بالله شهيدا على صدق رسوله وحقيقة مـا جاء به .

وشهادته سبحانه تكون بقوله وفعله وتاييده لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة على ان ما جاء به هو الحق المبين .

الشهادة : الاخبار بالشئ عن علم به واعتقاد لصحته وثبوته ، ولا تعتبر الشهادة الا اذا كانت مصحوبة بالاقرار والاذعان وواطـأ القلب عليها اللسان ، فان الله قد كذب المنافقين فى قولهم (نشهـد انك لرسول الله) مع انهم قالوا بالسنتهم .

ولا اله الا الله هى كلمة التوحيد التى اتفقت عليها كلمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، بل هى خلاصة دعواتهم وزبدة رسالاتهم ، وما من رسول منهم الا جعلها مفتتح أمره وقطب رحاه ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « أمرت أن اقاتل الناس حتـى يقولوا) : لا اله الا الله . فاذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » .

ودلالة هذه الكلمة على التوحيد باعتبار اشتمالها على النفـى والاثبات المقتضى للحصر وهو ابلغ من الاثبات المجرد ، كقولنا الله واحد مثلا فهى تدل بصدرها على نفى الالهية عما سوى الله تعالى ، وتدل بعجزها على اثبات الالهية له وحده .

ولابد فيها من اضمار خبر تقديره لا معبود بحق موجود الا الله ، وأما قوله وحده لا شريك له : فهو تاكيد لما دلت عليه كلمة

التوحيد وقوله اقرارا به مصدر مؤكد لمعنى الفعل اشهد ، والمراد اقرار القلب واللسان .

وقوله توحيدا اى اخلاصا لله عز وجل فى العبادة ، فالمراد به التوحيد الارادى الطلبى المبنى على توحيد المعرفة والاثبات .

وجعل الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة والعبودية مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد للاشارة الى انه لابد من كل منهما ، فلا تغنى احداهما عن الاخرى ، ولهذا قرن بينهما فى الاذان وفى التشهد . وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) يعنى لا أذكر الا ذكرت معى .

وانما جمع له بين وصفى الرسالة والعبودية لانهما اعلى ما يوصف به العبد » والعبادة هى الحكمة التى خلق الله الخلق لاجلها كما قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) فكمال المخلوق فى تحقيق تلك الغاية ، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ولهذا ذكر الله نبيه بلقب العبد فى اسمى احواله واشرف مقاماته كالاسراء به وقيامه بالدعوة الى الله والايحاء اليه والتحدى بالذى أنزل عليه ، ونبه بوصف العبودية أيضا الى الرد على اهل الغلو الذين قد يتجاوزون بالرسول صلى الله عليه وسلم قدره ويرفعونه الى مرتبة الالوهية . كما يفعل ضلال الصوفية قبحهم الله ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وانما انا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » والمقصود ان هذه الشهادة تتضمن اعتراف العبد بكمال عبوديته صلى الله عليه وسلم لربه وكمال رسالته ، وانه فاق جميع البشر فى كل خصلة كماله ، ولا تتم هذه الشهادة حتى يصدقه العبد فى كل ما أخبر به ، ويطيعه فى

كل ما أمر به ، وينتهى عما نهى عنــه .

الصلاة فى اللغة الدعاء ، قال تعالى « وَصَلِّ عليهم ان صلاتك سكن لهم » واصح ما قيل فى صلاة الله على رسوله هو ما ذكره البخارى فى صحيحه عن ابى العالية قال : صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عنــد الملائكــة .

والمشهور أن الصلاة من الملائكــة الاستغفار كما فى الحديــث الصحيح « والملائكة يصلون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى فيه » يقولون اللهم اغفر له اللهم ارحمه » ومن الآدميين التضرع والدعاء

وآل الشخص هم من يمتون اليه بصلة وثيقة من قرابة ونحوها وآله صلى الله عليه وسلم يراد بهم احيانا من حرمت عليهم الصدقة وهم بنو هاشم وبنو المطلب ويراد بهم أحيانا كل من تبعه على دينه ، واصل (آل) أهل ، ابدلت الهاء همزة فتوالت همزتان فقلبت الثانية منهما الفا ويصغر على أهيل او اويل ، ولا يستعمل الا فيما شرف غالبا فلا يقال آل الاسكاف وآل الحجام ، والمراد بالصحب اصحابه صلى الله عليه وسلم وهم كل من لقيه حال حياته مؤمنا ومات على ذلـــك .

والسلام اسم مصدر من سلم تسليما عليه ، بمعنى طلب له السلامة من كل مكروه ، وهو اسم من اسمائه تعالى ، ومعناه البراءة والخلاص من النقائص والعيوب أو الذى يسلم على عباده المؤمنين فى الآخـــــرة .

تَسليماً مَزيداً . أَمَّا بَعدُ فَهَذَا اعتِقَادُ
الفِرقَةِ النَّاجِيَةِ المنصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ ،

ومزيدا صفة لتسليما وهو اسم مفعول من زاد المتعدى والتقدير مزيدا فيه (أما بعد) كلمة يؤتى بها للدلالة على الشروع فى المقصود ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستعملها كثيرا فى خطبه وكتبه . وتقديرها عند النحويين مهما يكن من شىء بعد . والاشارة بقوله (هذا) الى ما تضمنه هذا المؤلف من العقائد الايمانية التى اجملها فى قوله (وهو الايمان بالله الـــخ) والاعتقاد مصدر اعتقد كذا اذ اتخذه عقيدة له ، بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان لله به ، واصله من عقد الحبل ، ثم استعمل فى التصميم والاعتقاد الجازم .

والفرقة بكسر الفاء الطائفة من الناس ، ووصفها بأنها الناجية المنصورة اخذا من قوله عليه السلام (لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى امر الله) .

ومن قوله فى الحديث الآخر « ستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار الا واحدة ، وهى من كان على مثل مـــا أنا عليه اليوم وأصحابـــى » .

وقوله (أهل السنة والجماعة) بدل من الفرقة ، والمراد بالسنة الطريقة التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه قبل ظهور البدع والمقالات . والجماعة فى الاصل القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا سلف هذه الامة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى اللـــه عليـــه وسلـــم .

هذه الامور الستة هى أركان الايمان فلا يتم ايمان احد الا اذا

وَهُوَ الإيمَانُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالبَعثِ بَعدَ الموتِ والإيمَانِ بالقَدَرِ خَيـرِهِ وَشَـرِّهِ .

آمن بها جميعا على الوجه الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة ، فمن جحد شيئا منها أو آمن به على غير هذا الوجه فقد كفر ، وقد ذكرت كلها فى حديث جبريل المشهور حين جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة اعرابى يسأله عن الاسلام والايمان والاحسان ، فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله تعالى .

(والملائكة) جمع ملاك واصله مألك من الألوكة وهى الرسالة وهم نوع من خلق الله عز وجل اسكنهم سماواته ، ووكلهم بشئون خلقه ووصفهم فى كتابه بأنهم لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم يسبحون له بالليل والنهار لا يفترون . فيجب علينا الايمان بما ورد فى حقهم من صفات واعمال فى الكتاب والسنة ، والامساك عما وراء ذلك ، فان هذا من شئون الغيب التى لا نعلم منها الا ما علمنا الله ورسوله .

والكُتُب جمع كِتاب « وهو من الكَتْبِ بمعنى الجمع والضم » والمراد بها الكتب المنزلة من السماء على الرسل عليهم الصلاة والسلام . والمعلوم لنا منها صحف ابراهيم والتوراة التى انزلت على موسى فى الالواح والانجيل الذى أنزل على عيسى ، والزبور الذى انزل على داود ، والقرآن الكريم الذى هو آخرها نزولا ، وهو المصدق لها والمهيمن عليها ، وما عداها يجب الايمان به اجمالا .

والرسل جمع رسول « وقد تقدم أنه من أوحى الله اليه بشرع وأمره بتبليغه » وعلينا أن نؤمن تفصيلا بمن سمى الله فى كتابه منهم وهم خمسة وعشرون ، ذكرهم الشاعر فى قوله :

رِفي تِلـكَ حُجَّتُنَا مِنهُـم ثَمَانِيَةٌ مِن بَعدِ عَشرٍ وَيَبقَى سَبعَةٌ وَهُم
إِدرِيسُ هُودُ شُعَيبٌ صَالِحٌ وَكَذا ذُو الكِفلِ آدَمُ بِالمختارِ قَد خُتِمُوا

وأما من عدا هؤلاء من الرسل والانبياء فنؤمن بهم اجمالا على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم دون أن نكلف انفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم ، فان ذلك مما اختص الله بعلمه ، قال تعالى (ورسلا قد قصصنا عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) .

ويجب الايمان بأنهم بلغوا جميع ما ارسلوا به على ما أمرهم الله عز وجل ، وبينوه بيانا لا يسع أحدا ممن أرسلوا اليه جهله ، وانهم معصومون من الكذب والخيانة ، والكتمان والبلادة ، وان افضلهم أولو العزم ، والمشهور أنهم محمد وابراهيم وموسى وعيسى ونوح ، لانهم ذكروا معا فى قوله تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم) وقوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)

والبعث فى الاصل الاثارة والتحريك ، والمراد به فى لسان الشرع اخراج الموتى من قبورهم أحياء يوم القيامة لفصل القضاء بينهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . ويجب الايمان بالبعث على الصفة التى بينها الله فى كتابه ، وهو انه جمع ما تحلل من اجزاء الاجساد التى كانت فى الدنيا وانشاؤها خلقا جديدا واعادة الحياة اليها ، ومنكر البعث الجثمانى كالفلاسفة والنصارى كفار ، وأما من اقر به ولكنه زعم أن الله يبعث الارواح فى أجسام غير الاجسام التى كانت فى الدنيا فهو مبتدع وفاسق .

وأما القدر فهو فى الاصل مصدر ، تقول قدرت الشىء بفتح الدال وتخفيفها ، أقدره بكسرها قدرا وقدرا اذا أحطت بمقداره

وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ ، الإيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ مِن غَيرِ تَحرِيفٍ : فِي كِتابِهِ ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مِن غَيرِ تَحرِيفٍ وَلاَ تَعطِيلٍ وَمِن غَيرِ تَكيِيفٍ وَلاَ تَمثِيلٍ .

والمراد به فى لسان الشرع أن الله عز وجل علم مقادير الاشياء وازمانها ازلا ، ثم اوجدها بقدرته ومشيئته على وفق ما علمه منها ، وانه كتبها فى اللوح قبل احداثها ، كما فى الحديث « أول ما خلق الله القلم ، فقال له اكتب ، قال وما اكتب ؟ قال اكتب كل ما هو كائن » وقال تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبراها) .

وقوله (ومن الايمان بالله الخ) هذا شروع فى التفصيل بعد الاجمال ومن هنا للتبعيض ، والمعنى : ومن جملة ايمان اهل السنة والجماعة بالاصل الاول الذى هو اعظم الاصول وأساسها ، وهو الايمان بالله أنهم يؤمنون بما وصف به نفسه الخ .

وقوله (من غير تحريف) متعلق بالايمان قبله يعنى أنهم مؤمنون بالصفات الالهية على هذا الوجه الخالى من كل هذه المعانى الباطلة اثباتا بلا تمثيل ، وتنزيها بلا تعطيل .

والتحريف فى الاصل ماخوذ من قولهم : حرفت الشيء عن وجهه حرفا ، من باب ضرب اذا أملته وغيرته والتشديد للمبالغة .

وتحريف الكلام امالته عن المعنى المتبادر منه الى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ الا باحتمال مرجوح ، فلابد فيه من قرينة تبين انه المراد .

وأما التعطيل فهو ماخوذ من العطل الذى هو الخلو والفراغ والترك ، ومنه قوله تعالى (وبئر معطلة) اى اهملها اهلها وتركوا وردها ، والمراد به هنا نفى الصفات الالهية ، وانكار قيامها بذاته

تعالى . فالفرق بين التحريف والتعطيل أن التعطيل نفى للمعنى الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وأما التحريف فهو تفسير النصوص بالمعانى الباطلة التى لا تدل عليها .

والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق ، فان التعطيل اعم مطلقا من التحريف بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس ، وبذلك يوجدان معا فيمن اثبت المعنى الباطل ونفى المعنى الحق ، ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة فى الكتاب والسنة وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لها معنى آخر وهو ما يسمونه بالتفويض .

ومن الخطأ القول بأن هذا هو مذهب السلف كما نسب ذلك اليهم المتأخرون من الاشاعرة وغيرهم ، فان السلف لم يكونوا يفوضون فى علم المعنى ولا كانوا يقرأون كلاما لا يفهمون معناه ، بل كانوا يفهمون معانى النصوص من الكتاب والسنة ، ويثبتونها لله عز وجل ، ثم يفوضون فيما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتها كما قال مالك حين سئل عن كيفية استوائه تعالى على العرش : « الاستواء معلوم والكيف مجهول » .

وأما قوله (ومن غير تكييف ولا تمثيل) فالفرق بينهما ان التكييف ان يعتقد ان صفاته تعالى على كيفية كذا ، أو يسأل عنها بكيف .

واما التمثيل فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين ، وليس المراد من قوله من غير تكييف انهم ينفون الكيف مطلقا ، فان كل شىء لابد ان يكون على كيفية ما ، ولكن المراد انهم ينفون علمهم بالكيف اذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته الا هو سبحانه .

فَلَا يَنفُونَ عَنهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَلَا يلحِدُونَ فِي أَسماءِ اللهِ وَآيَاتِهِ ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُون صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلقِهِ

قوله (ليس كمثله) هذه الآية المحكمة من كتاب الله عز وجل هى دستور أهل السنة والجماعة فى باب الصفات فان الله عز وجل قد جمع فيها بين النفى والاثبات ، فنفى عن نفسه المثل وأثبت لنفسه سمعا وبصرا . فدل هذا على ان المذهب الحق ليس هو نفى الصفات مطلقا كما هو شأن المعطلة ولا اثباتها مطلقا ، كما هو شأن الممثلة ، بل اثباتها بلا تمثيل . وقد اختلف فى اعراب (ليس كمثله شىء) على وجوه اصحها ان الكاف صلة زيدت للتاكيد كما فى قول الشاعر :

ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه فى الفضائل

وقوله (فلا ينفون عنه الخ) تفريع على ما قبله ، فانهم اذا كانوا يؤمنون بالله على هذا الوجه فلا ينفون ولا يحرفون ، ولا يكيفون ولا يمثلون .

والمواضع جمع موضع والمراد بها المعانى التى يجب تنزيل الكلام عليها لانها هى المتبادرة منه عند الاطلاق فهم لا يعدلون به عنها .

وأما قوله (ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته) فقد قال العلامة ابن القيم رحمه الله : والالحاد فى اسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة (ل ح د) فمنه اللحد وهو الشق فى جانب القبر الذى قد مال عن الوسط ، ومنه الملحد فى الدين (المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه) اهـ .

فالالحاد فيها اما أن يكون بجحدها وانكارها بالكلية ، واما بجحد معانيها وتعطيلها ، واما بتحريفها عن الصواب واخراجها

لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ وَلَا كُفءَ لَهُ وَلَا نِدَّ لَـــهُ .

عن الحق بالتأويلات الفاسدة ، واما بجعلها أسماء لبعض المبتدعات كالحاد اهل الاتحاد .

وخلاصة ما تقدم أن السلف رضى الله عنهم يؤمنون بكـل ما اخبر الله به عن نفسه فى كتابه وبكل ما أخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ايمانا سالما من التحريف والتعطيل ، ومن التكييف والتمثيل ويجعلون الكلام فى ذات البارى وصفاته بابا واحدا ، فان الكلام فى الصفات فرع الكلام فى الذات يحتذى فيه حذوه ، فاذا كان اثبات الذات اثبات وجود لا اثبات تكييف فكذلك اثبات الصفات ، وقد يعبرون عن ذلك بقولهم (تمر كما جاءت بلا تأويل) ومن لم يفهم كلامهم ظن أن غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرض للمعنى وهو باطل ، فان المراد بالتأويل المنفى هنا هو حقيقة المعنى وكنهـــه وكيفيتـــه .

قال الامام أحمد رحمه الله : « لا يوصف الله الا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث » .

وقال نعيم بن حماد شيخ البخارى : « من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه او وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل » .

قوله (لانه سبحانه لا سمى له الخ) تعليل لقوله فيما تقدم اخبارا عن اهل السنة والجماعة لا يكيفون ولا يمثلون .

ومعنى (لا سمى له) اى لا نظير له يستحق مثل اسمه ، أو لا مسامى له يساميه ، وقد دل على نفيه قوله تعالى فى سورة مريم (هل تعلم له سميا) فان الاستفهام هنا انكارى معناه النفى .

وليس المراد من نفى السمى أن غيره لا يسمى بمثل أسمائه ، فانه هناك أسماء مشتركة بينه وبين خلقه ، ولكن المقصود أن هذه الاسماء اذا سمى الله بها كان معناها مختصا به لا يشركه فيه غيره ، فان الاشتراك انما هو فى مفهوم الاسم الكلى ، وهذا لا وجود له الا فى الذهن ، واما فى الخارج فلا يكون المعنى الا جزئيا مختصا ، وذلك بحسب ما يضاف اليه ، فان اضيف الى الرب كان مختصا به لا يشاركه فيه العبد ، وان أضيف الى العبد كان مختصا به لا يشاركه فيه الرب .

واما الكفء فهو المكافىء المساوى ، وقد دل على نفيه قوله تعالى (ولم يكن له كفوا أحد) .

واما الند فمعناه المساوى المناوىء قال تعالى (فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون) .

واما قوله (ولا يقاس بخلقه) فالمقصود به انه لا يجوز استعمال شىء من الاقيسة التى تقتضى المماثلة والمساواة بين المقيس والمقيس عليه فى الشئون الالهية .

وذلك مثل قياس التمثيل الذى يعرفه علماء الاصول بانه الحاق فرع باصل فى حكم الجامع ، كالحاق النبيذ بالخمر فى الحرمة لاشتراكهما فى علة الحكم وهى الاسكار .

فقياس التمثيل مبنى على وجود مماثلة بين الفرع والاصل ، والله عز وجل لا يجوز أن يمثل بشىء من خلقه .

ومثل قياس الشمول المعروف عند المناطقة بانه الاستدلال بكلى على جزئى بواسطة اندراج ذلك الجزئى مع غيره تحت هذا الكلى . فهذا القياس مبنى على استواء الافراد المندرجة تحت هذا

فَإِنَّهُ أَعلَمَ بِنَفسِهِ وَبِغَيرِهِ وَأَصدَقُ قِيلاً وَأَحسَنُ حَدِيثاً مِن خَلقِهِ ، ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ بِخِلَافِ الذِينَ يَقُولُونَ عَلَيهِ مَا لاَ يَعلَمُـونَ)

الكلى ، ولذلك يحكم على كل منها بما حكم به عليه .

ومعلوم انه لا مساواة بين الله عز وجل وبين شيء من خلقه وانما يستعمل فى حقه تعالى قياس الأَولَى ومضمونه ان كل كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق ، فالخالق أَولَى به مـن المخلوق ، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق احق بالتنزة عنه .

وكذلك قاعدة الكمال التى تقول : انه اذا قدر اثنان احدهما موصوف بصفة كمال والآخر يمتنع عليه ان يتصف بتلك الصفة كان الاول اكمل من الثانى ، فيجب اثبات مثل تلك الصفة لله ما دام وجودها كمالا وعدمها نقصـا .

قوله (فانه أعلم بنفسه وبغيره ــ الى قوله ــ ثم رسله صادقون مصدقون) تعليل لصحة مذهب السلف فى الايمان بجميع الصفـات الواردة فى الكتاب والسنة . فانه اذا كان الله عز وجل أعلم بنفسه وبغيره ، وكان أصدق قولا واحسن حديثا ، وكان رسله عليهـم الصلاة والسلام صادقين فى كل ما يخبرون به عنه ، معصومين من الكذب عليه والاخبار عنه بما يخالف الواقع . وجب التعويل اذا فى باب الصفات نفيا واثباتا على ما قاله الله وقاله رسوله الـذى هو أعلم خلقه به ، وأن لا يترك ذلك الى قول من يفترون على الله الكذب ويقولون عليه ما لا يعلمون .

وبيان ذلك أن الكلام انما تقصر دلالته على المعانى المرادة منه لاحد ثلاثة أسباب ، اما لجهل المتكلم وعدم علمه بما يتكلم به ، واما لعدم فصاحته وقدرته على البيان ، واما لكذبه وغشه وتدليسـه ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الامور الثلاثة من كـل وجه

فكلام الله وكلام رسوله فى غاية الوضوح والبيان ، كما أنه المثل الاعلى فى الصدق والمطابقة للواقع لصدوره عن كمال العلم بالنسب الخارجية وهو كذلك صادر عن تمام النصح والشفقة ، والحرص على هداية الخلق وارشادهم .

فقد اجتمعت له الامور الثلاثة التى هى عناصر الدلالة والافهام على اكمل وجه . فالرسول صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق بما يريد اخبارهم به ، وهو اقدرهم على بيان ذلك ، والافصاح عنه . وهو أحرصهم على هداية الخلق واشدهم ارادة لذلك ، فلا يمكن ان يقع فى كلامه شىء من النقص والقصور بخلاف كلام غيره فانه لا يخلو من نقص فى احد هذه الامور أو جميعها ، فلا يصح أن يعدل بكلامه كلام غيره فضلا عن أن يعدل عنه الى كلام غيره ، فان هذا هو غاية الضلال ومنتهى الخذلان .

قوله (ولهذا قال الخ) تعليل لما تقدم من كون كلام الله وكلام رسوله اكمل صدقا واتم بيانا ونصحا ، وابعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد .

(وسبحان) اسم مصدر من التسبيح ، الذى هو التنزيه والابعاد عن السوء ، واصله من السبح الذى هو السرعة والانطلاق والابعاد ، ومنه فرس سبوح اذا كانت شديدة العدو .

واضافة الرب الى العزة من اضافة الموصوف الى صفته ، وهو بدل من الرب قبله ، فهو سبحانه ينزه نفسه عما ينسبه اليه المشركون من اتخاذ الصاحبة والولد وعن كل نقص وعيب .

ثم يسلم على رسله عليهم الصلاة والسلام بعد ذلك للاشارة الى أنه كما يجب تنزيه الله عز وجل وابعاده عن كل شائبة نقص

وَالحَمدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِين) فَسَبَّحَ نَفسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ المُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ ، وَسَلَّمَ عَلَى المُرسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقصِ وَالعَيبِ . وَهُوَ قَد جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفسَهُ بَينَ النَّفيِ وَالإِثبَاتِ .

وعيب ، فيجب اعتقاد سلامة الرسل فى اقوالهم وافعالهم من كل عيب كذلك فلا يكذبون على الله ولا يشركون به ولا يغشون اممهم ولا يقولون على الله الا الحق .

قوله (والحمد لله رب العالمين) ثناء منه سبحانه على نفسه بماله من نعوت الكمال وأوصاف الجلال وحميد الفعال ، وقد تقدم الكلام على معنى الحمد فاغنى عن اعادته .

لما بين فيما سبق أن اهل السنة والجماعة يصفون الله عز وجل بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ، ولم يكن ذلك كله اثباتا ولا كله نفيا نبه على ذلك بقوله (وهو سبحانه قد جمع الخ) .

واعلم أن كلا من النفى والاثبات فى الاسماء والصفات مجمل ومفصل . أما الاجمال فى النفى : فهو أن ينفى عن الله عز وجل كل ما يضاد كماله من انواع العيوب والنقائص مثل قوله تعالى (ليس كمثله شىء) (هل تعلم له سميا) (سبحان الله عما يصفون) .

واما التفصيل فى النفى فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه ، فينزه عن الوالد والولد والشريك والصاحبة والند والضد والجهل والعجز والضلال والنسيان والسِّنَة والنوم والعبث والباطل الخ .

ولكن ليس فى الكتاب ولا فى السُّنَّة نفى محض ، فان النفى الصرف لا مدح فيه ، وانما يراد بكل نفى فيهما اثبات ما يضاده من الكمال ، فنفى الشريك والند لاثبات كمال عظمته وتفرده بصفات الكمال ، ونفى العجز لاثبات كمال قدرته ، ونفى الجهل لاثبات سعة

فَلَا عُدُولَ لِأَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بهِ المرسَلُونَ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ المستَقِيمُ صِرَاطُ الذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ .

علمه واحاطته ، ونفى الظلم لاثبات كمال عدله ، ونفى العبث لاثبات كمال حكمته ، ونفى السِّنَة والنوم والموت لاثبات كمال حياته وقيوميته وهكذا ، ولهذا كان النفى فى الكتاب والسنة انما يأتى مجملا فى اكثر أحواله بخلاف الاثبات ، فان التفصيل فيه اكثر من الاجمال لانه مقصود لذاته .

واما الاجمال فى الاثبات ، فمثل اثبات الكمال المطلق ، والحمد المطلق والمجد المطلق ونحو ذلك ، كما يشير اليه مثل قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) (ولله المثل الاعلى) .

واما التفصيل فى الاثبات فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت فى الكتاب والسنة ، وهو من الكثير بحيث لا يمكن لاحد أن يحصيه فان منها ما اختص الله عز وجل بعلمه كما قال عليه الصلاة والسلام « سبحانك لا نحصى ثناء عليك انت كما أثنيت على نفسك » وفى حديث دعاء الكرب « اسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك او أنزلته فى كتابك أو علمته احدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » .

قوله (فلا عدول الخ) هذا مترتب على ما تقدم من بيان أن ما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الحق الذى يجب اتباعه ولا يصح العدول عنه ، وقد علل ذلك بأنه الصراط المستقيم ، يعنى الطريق السوى القاصد الذى لا عوج فيه ولا انحراف .

والصراط المستقيم لا يكون الا واحداً من زاغ عنه أو انحرف وقع فى طريق من طرق الضلال والجور كما قال تعالى (وان هذا

وَقَد دَخَل فِي هَذِهِ الجُملَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفسَهُ فِي سُورَةِ الإِخلَاصِ التي تَعدِلُ ثُلثَ القُرآن.

صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)
والصراط المستقيم هو طريق الامة الوسط الواقع بين طرفى الافراط والتفريط ولهذا امرنا الله عز وجل وعلمنا أن نسأله ان يهدينا هذا الصراط المستقيم فى كل ركعة من الصلاة ، اى يلهمنا ويوفقنا لسلوكه واتباعه فانه صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

قوله (وقد دخل الخ) شروع فى ايراد النصوص من الكتاب والسنة المتضمنة لما يجب الايمان به من الاسماء والصفات فى النفى والاثبات .

وابتدأ بتلك السورة العظيمة لانها اشتملت من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيرها . ولهذا سميت سورة الاخلاص لتجريدها التوحيد من شوائب الشرك والوثنية .

روى الامام احمد فى مسنده عن ابى بن كعب رضى الله عنه فى سبب نزولها ان المشركين قالوا يا محمد انسب لنا ربك ، فأنزل الله تبارك وتعالى (قل هو الله احد الله الصمد الخ السورة) .

وقد ثبت فى الصحيح انها تعدل ثلث القرآن . وقد اختلف العلماء فى تأويل ذلك على اقوال اقربها (١) : ما نقله شيخ الاسلام عن ابى العباس ، وحاصله أن القرآن الكريم اشتمل على ثلاثة مقاصد اساسية . اولها:الاوامر والنواهى المتضمنة للاحكام والشرائع

---

(١) انظر ٣٥ ، ٦٢ من كتاب جواب اهل العلم والايمان لشيخ الاسلام ابن تيمية ، طبع المطبعة السلفية .

حَيثُ يَقُولُ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَم يَلِدْ وَلَم يُولَدْ وَلَم يَكن لَـــهُ كُفُــواً أَحَــدٌ) .

العملية التى هى موضوع علم الفقه والاخلاق .

ثانيها : القصص والاخبار المتضمنة لاحوال الرسل عليهــم الصلاة والسلام مع اممهم ، وانواع الهلاك التى حاقت بالمكذبين ، لهم واحوال الوعد والوعيد وتفاصيل الثواب والعقاب .

ثالثها: علم التوحيد وما يجب على العباد من معرفة الله بأسمائه وصفاته وهذا هو اشرف الثلاثة .

ولما كانت سورة الاخلاص قد تضمنت أصول هذا العلــم ، واشتملت عليه اجمالا صح ان يقال انها تعدل ثلث القرآن .

واما كيف اشتملت هـــذه السورة على علوم التوحيد كلهـــا وتضمنت الاصول التى هى مجامع التوحيد العلمى الاعتقادى فنقول :

ان قوله تعالى (الله أحد) دلت على نفى الشريك من كل وجه فى الذات او فى الصفات او فى الافعال ، كما دلت على تفرده سبحانه بالعظمة والكمال والمجد والجلال والكبرياء ، ولهذا لا يطلق لفظ أحد فى الاثبات الا على الله عز وجل ، وهو أبلغ من واحد .

وقوله (الله الصمد) قد فسرها ابن عباس رضى الله عنه بقوله « السيد الذى كمل فى سؤدده ، والشريف الذى كمل فى شرفه والعظيم الذى قد كمـــل فى عظمته ، والحليم الذى قد كـــمل فى حلمـــه ، والغنى الذى قد كمل فى غناه ، والجبار الذى قد كمل فى جبروته ، والعليم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمه ، وهو الذى قد كمل فى انواع الشرف والسؤدد ، وهو الله عز وجل هذه صفته لا تنبغى الا له ليس له كفؤ وليس كمثله شىء .

وقد فسر الصمد ايضا بأنه الذى لا جوف له وبانه الذى تصمد اليه الخليقة كلها وتقصده فى جميع حاجاتها ومهماتها .

فاثبات الاحدية لله تتضمن نفى المشاركة والمماثلة ، واثبات الصمدية بكل معانيها المتقدمة تتضمن اثبات جميع تفاصيل الاسماء الحسنى والصفات العلى ، وهذا هو توحيد الاثبات .

واما النوع الثانى وهو توحيد التنزيه فيؤخذ من قوله تعالى : (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) كما يؤخذ اجمالا من قوله (الله أحد) .

أى لم يتفرع عنه شىء ولم يتفرع هو عن شىء ، وليس له مكافىء ولا مماثل ولا نظير .

فانظر كيف تضمنت هذه السورة توحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب اثباته للرب تعالى من الاحدية المنافية لمطلق المشاركة والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذى لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه ، ونفى الولد والوالد الذى هو من لوازم غناه وصمديته واحديته ، ثم نفى الكفء المتضمن لنفى التشبيه والتمثيل والنظير فحق لسورة تضمنت هذه المعارف كلها أن تعدل ثلث القرآن .

روى مسلم فى صحيحه عن ابى بن كعب ان النبى صلى الله عليه وسلم سأله : اى آية فى كتاب الله اعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم ، فرددها مرارا ، ثم قال ابى : آية الكرسى فوضع النبى يده على كتفه وقال : ليهنك هذا العلم ابا المنذر — وفى رواية عند أحمد : « والذى نفسى بيده ان لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » .

ولا غرو فقد اشتملت هذه الآية العظيمة من اسماء الرب

وصفاته على ما لم تشتمل عليه آية اخــرى .

فقد اخبر الله فيها عن نفسه بانه المتوحد فى إِلَهِيَّتِهِ الــذى لا تنبغى العبادة بجميع انواعها وسائر صورها إِلَّا لَــهُ .

ثم اردف قضية التوحيد بما يشهد لها من ذكر خصائصه وصفاته الكاملة ، فذكر انه الحى الذى له كمال الحياة لان حياته من لوازم ذاته فهى ازلية ابدية ، وكمال حياته يستلزم ثبوت جميع صفــات الكمال الذاتية له من العزة والقدرة والعلم والحكمة والسمع والبصر والارادة والمشيئة وغيرها ، اذ لا يتخلف شىء منها الا لنقص فــى الحياة . فالكمال فى الحياة يتبعه الكمال فى سائر الصفات اللازمــة للحى . ثم قرن ذلك باسمه القيوم ومعناه الذى قام بنفسه واستغنى عن جميع خلقه غنى مطلقا لا تشوبه شائبة حاجة أصلا لانه غنى ذاتى ، وبــه قامت الموجودات كلها ، فهى فقيرة اليه فقرا ذاتيا بحيــث لا تستغنى عنه لحظة ، فهو الذى ابتدأ ايجادها على هذا النحو مــن الاحكام والاتقان وهو الذى يدبر امورها ويمدها بكل ما تحتــاج اليه فى بقائهــا . وفى بلوغ الكمال الذى قدره لها ، فهذا الاســم متضمن لجميع صفات الكمال الفعلية ، كما ان اسمه الحى متضمن لجميع صفات الكمال الذاتية . ولهذا ورد ان الحي القيوم همــا اسم الله الاعظم الذى اذا سئل به اعطى واذا دعى به اجاب .

ثم أعقب ذلك بما يدل على كمال حياته وقيوميته فقال (لا تأخذه) اى لا تغلبه (سنة) اى نعاس ولا نوم ، فان ذلك ينافى القيومية ، اذ النوم اخو الموت . ولهذا كان اهل الجنة لا ينامون ، ثم ذكــر عموم ملكه لجميع العوالم العلوية والسفلية ، وانها جميعا تحت قهره وسلطانه فقال (له ما فى السموات وما فى الارض) .

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ. مَن ذَا الَّذِي يَشفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذنِهِ يَعلَمُ مَا بَينَ أَيدِيهِمْ وَمَا خَلفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ)

ثم أردف ذلك بما يدل على تمام ملكه ، وهو ان الشفاعة كلها له فلا يشفع عنده أحد الا باذنه .

وقد تضمن هذا النفى والاستثناء امرين ، أحدهما : اثبات الشفاعة الصحيحة ، وهى انها تقع باذنه سبحانه لمن يرضى قوله وعمله . والثانى : ابطال الشفاعة الشركية التى كان يعتقدها المشركون لاصنامهم وهى انها تشفع لهم بغير اذن الله ورضاه .

ثم ذكر سعة علمه واحاطته وانه لا يخفى عليه شىء من الامور المستقبلة والماضية واما الخلق فانهم لا يحيطون بشىء من علمه ، قيل يعنى من معلومه ، وقيل من علم اسمائه وصفاته الا بما شاء الله سبحانه . ان يعلمهم اياه على السنة رسله او بغير ذلك من طرق البحث والنظر والاستنتاج والتجربة .

ثم ذكر ما يدل على عظيم ملكه وواسع سلطانه ، فاخبر ان كرسيه قد وسع السموات والارض جميعا . والصحيح فى الكرسى انه غير العرش وانه موضع القدمين ، وانه فى العرش كحلقة ملقاة فى فلاة .

واما ما اورده ابن كثير عن ابن عباس من تفسير الكرسى بالعلم فانه لا يصح ويفضى الى التكرار فى الآية .

ثم اخبر سبحانه بعد ذلك عن عظيم قدرته وكمال قوته بقوله : (ولا يؤوده حفظهما) اى السموات والارض وما فيهما . وفسر

الشيخ رحمه الله يؤوده (يثقله) ويكرثه وهو من آده الامـر اذا ثقل عليه ، ثم وصف نفسه سبحانه فى ختام تلك الآية الكريمة ، بهذين الوصفين الجليلين ، وهما (العلى والعظيم) .

فالعلى هـو الذى له العلو المطلـق من جميـع الوجـوه ، علو الذات : وكونه فوق جميع المخلوقات مستويا على عرشه .

وعلو القدر : اذ كان له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفـة أعلاها وغايتهـا .

وعلو القهر : اذ كان هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . واما العظيم : فمعناه الموصوف بالعظمة الذى لا شىء أعظم منه ، ولا اجل ولا اكبر ، وله سبحانه التعظيـم الكامل فى قلوب انبيائـه وملائكتـه واصفيـائـه .

قوله (هو الاول) الجملة هنا جاءت معرفة الطرفين ، فهـى تفيد اختصاصه سبحانه بهذه الاسماء الاربعة ومعانيها على ما يليق بجلاله وعظمته ، فلا يثبت لغيره من ذلك شىء .

وقد اضطربت عبارات المتكلمين فى تفسير هذه الاسماء ، ولا داعى لهذه التفسيرات بعد ما ورد تفسيرها عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، فقد روى مسلم فى صحيحه عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يقول اذا اوى الى فراشه ، « اللهم رب السموات السبع ورب الارض رب كل شىء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والانجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل ذى شر انت آخذ بناصيته ، انت الاول فليس قبلك شىء ، وانت الآخر فليس بعدك شىء ، وانت الظاهر فليس فوقك شىء ، وانت الباطن فليس دونك شىء ، اقض عنى الدين واغننى من الفقر » .

فهذا تفسير واضح جامع يدل على كمال عظمته سبحانه وانه محيط بالاشياء من كل وجه (فالاول والآخر) بيان لاحاطته الزمانية ، (والظاهر والباطن) بيان لاحاطته المكانية ، كما أن اسمه الظاهر يدل على أنه العالى فوق جميع خلقه ، فلا شيء منها فوقه .

فمدار هذه الاسماء الاربعة على الاحاطة ، فأحاطت أوليته وآخريته بالاوائل والاواخر ، واحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن فاسمه الاول دال على قدمه وأزليته ، واسمه الآخر دال على بقائه وابديته ، واسمه الظاهر دال على علوه وعظمته ، واسمه الباطن دال على قربه ومعيته ، ثم ختمت الآية بما يفيد احاطة علمه بكل شيء من الامور الماضية والحاضرة والمستقبلة ، ومن العالم العلوى والسفلى ، ومن الواجبات والجائزات والمستحيلات فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء . فالآية كلها شأن احاطة الرب سبحانه بجميع خلقه من كل وجه ، وان العوالم كلها فى قبضة يده كخردلة فى يد العبد لا يفوته منها شيء ، وانما أتى بين هذه الصفات بالواو مع انها جارية على موصوف واحد لزيادة التقرير والتأكيد ، لان الواو تقتضى تحقيق الوصف المتقدم وتقريره وحسن ذلك لمجيئها بين أوصاف متقابلة قد يسبق الى الوهم استبعاد الاتصال بها جميعا ، فان الاولية تنافى الآخرية فى الظاهر . وكذلك الظاهرية والباطنية فاندفع توهم الانكار التأكيد .

قوله (وتوكل الخ) هذه الجملة من الآيات ساقها المؤلف لاثبات بعض الاسماء والصفات . فالآية الاولى فيها اثبات اسمه الحى ، كما تضمنت سلب الموت الذى هو ضد الحياة عنه ، وقد قدمنا أنه سبحانه حى بحياة هى صفة له لازمة لذاته فلا يعرض لها موت ولا زوال أصلا ، وأن

وَقَوْلُهُ (وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ـ وَهُوَ العَلِيمُ الخَبِيرُ ـ يَعلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرضِ وَمَا يَخرُجُ مِنهَا ، وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعرُجُ فِيهَا ـ

حياته أكمل حياة وأتمها فيستلزم ثبوتها له ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة . وأما الآيات الباقية ففيها اثبات صفة العلم وما اشتق منها ككونه عليما ويعلم واحاط بكل شيء علما الخ .

والعلم صفة لله عز وجل بها يدرك جميع المعلومات على ما هى به فلا يخفى عليه منها شيء كما قدمنا .

وفيها اثبات اسمه الحكيم ، وهو مأخوذ من الحكمة ، ومعناه الذى لا يقول ولا يفعل الا الصواب ، فلا يقع منه عبث ولا باطل ، بل كل ما يخلقه او يأمر به فهو تابع لحكمته .

وقيل هو من فعيل بمعنى مفعل ، ومعناه المحكم للاشياء من الاحكام وهو الاتقان فلا يقع فى خلقه تفاوت ولا فطور ، ولا يقع فى تدبيره خلل أو اضطراب .

وفيها كذلك اثبات اسمه الخبير ، وهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والاحاطة بالاشياء على وجه التفصيل ووصول علمه الى كل ما خفى ودق من الحسيات والمعنويات .

وقد ذكر سبحانه فى هذه الآيات بعض ما يتعلق به علمه للدلالة على شموله واحاطته بما لا تبلغه علوم خلقه ، فذكر أنه يعلم ما يلج أى يدخل فى الارض من حب وبذور ومياه وحشرات ومعادن ، وما يخرج منها من زرع واشجار وعيون جارية ومعادن نافعة كذلك وما ينزل من السماء ، من ثلوج وامطار وصواعق وملائكة ، وما يعرج ، أى يصعد فيها كذلك من ملائكة واعمال وطير صواف الى غير ذلك مما يعلمه جل شأنه ، وذكر فيها ايضا ان عنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ومفاتح الغيب قيل خزائنه ، وقيل طرقه

وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيبِ لَا يَعلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحرِ وَمَا تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرضِ وَلَا رَطبٍ وَلَا يابس

واسبابه التى يتوصل بها اليه ، جمع مِفْتَح بكسر الميم او مِفتَـاح بحذف يـاء مفاعيل .

وقد فسرها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن الا الله ، ثم تلا قوله تعالى (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس باى أرض تموت ان الله عليم خبير) .

وقد دلت الآيتان الاخيرتان على أنه سبحانه عالم بعلم هو صفة له قائم بذاته خلافا للمعتزلة الذين نفوا صفاته ، فمنهم من قال أنه عالم بذاته وقادر بذاته الخ ، ومنهم من فسر اسماءه بمعان سلبية فقال : عليم معناه لا يجهل ، وقادر معناه لا يعجز الخ .

وهذه الآيات حجة عليهم فقد اخبر فيها سبحانه عن احاطة علمه بحمل كل انثى ووضعها من حيث المتى والكيف ، كمـا أخبـر عن عموم قدرته وتعلقها بكل ممكن وعن احاطة علمه بجميع الاشياء وما احسن ما قاله الامام عبد العزيز المكى فى كتابه الحيدة لبشـر المريسى المعتزلى وهو يناظره فى مسالة العلم « ان الله عز وجل لم يمدح كتابه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا مؤمنا تقيا بنفى الجهل عنه ليدل على اثبات العلم له ، وانما مدحهم باثبات العلم لهم فنفى بذلك الجهل عنهم ، فمن اثبت العلم نفى الجهل ، ومن نفى الجهل لم يثبـت العلـم » .

والدليل العقلى على علمه تعالى انه يستحيل ايجاده الاشياء مع الجهل لان ايجاده الاشياء بارادته ، والارادة تستلزم العلم المراد ولهذا قال سبحانه (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) وَقَوْلُهُ (وَمَا تَحْمِلُ مِن أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) وَقَوْلُهُ (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) .

ولان المخلوقات فيها من الاحكام والاتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة ما يشهد بعلم الفاعل لها لامتناع صدور ذلك عن غير علم .

ولان من المخلوقات من هو عالم والعلم صفة كمال ، فلو لم يكن الله عالما لكان فى المخلوقات من هو أكمل منه .

وكل علم فى المخلوق انما استفاده من خالقه ، وواهب الكمال أحق به ، وفاقد الشىء لا يعطيه . وأنكر الفلاسفة علمه تعالى بالجزئيات وقالوا انه يعلم الاشياء على وجه كلى ثابت ، وحقيقة قولهم انه لا يعلم شيئا ، فان كل ما فى الخارج هو جزئى . كما انكر الغلاة من القدرية علمه تعالى بافعال العباد حتى يعملوها ، توهما منهم ان علمه بها يفضى الى الجبر ، وقولهم معلوم البطلان بالضرورة فى جميع الاديان . قوله (ان الله الخ) تضمنت اثبات اسمه الرزاق وهو مبالغة من الرزق ومعناه الذى يرزق عباده رزقا بعد رزق فى اكثار وسعة ، وكل ما وصل منه سبحانه من نفع الى عباده فهو رزق،مباحاً كان أو غير مباح على معنى أنه قد جعله لهم قوتا ومعاشا ، قال تعالى (والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد) وقال (وفى السماء رزقكم وما توعدون) الا أن الشىء اذا كان مأذونا فى تناوله فهو حلال حكما والا كان حراما ، وجميع ذلك رزق ، وتعريف الجملة الاسمية والاتيان فيها بضمير الفصل لافادة اختصاصه سبحانه بايصال الرزق الى عباده .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « اقرانى رسول

وَقَوْلُهُ (إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينِ)
وَقَوْلُهُ (لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) وَقَوْلُهُ (إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) .

الله صلى الله عليه وسلم انى انا الرزاق ذو القوة المتين » .

واما قوله (ذو القوة) اي صاحب القوة فهو بمعنى اسمه القوى الا انه ابلغ فى المعنى ، فهو يدل على ان قوته سبحانه لا تتناقص فيهن او يفتـــر .

واما (المتين) فهو اسم له من المتانة ، وقد فسره ابن عباس « بالشديـــــد » .

قوله (ليس كمثله شيء الخ) دل اثبات صفتى السمع والبصر له سبحانه بعد نفى المثل عنه على انه ليس المراد من نفى المثل نفى الصفات كما يدعى ذلك المعطلة ويحتجون به باطلا ، بل المراد اثبات الصفات مع نفى مماثلتها لصفات المخلوقين

قال العلامة ابن القيم رحمه الله (قوله ليس كمثله شيء) انما قصد به نفى ان يكون معه شريك او معبود يستحق العبادة والتعظيم كما يفعله المشبهون والمشركون ، ولم يقصد به نفى صفات كمالـــه وعلوه على خلقه وتكليمه بكتبه وتكلمه لرسله ورؤية المؤمنين لـــه جهرة بأبصارهم كما ترى الشمس والقمر فى الصحو . ا هـ .

ومعنى السميع المدرك لجميع الاصوات مهما خفتت ، فهو يسمع السر والنجوى بسمع هو صفة لا يماثل اسماع خلقه .

ومعنى البصير المدرك لجميع المرئيات من الاشخاص والالوان مهما لطفت او بعدت فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والاستار وهو من فعيل بمعنى مفعل ، وهو دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذى يليق بـــه .

وَقولُهُ (وَلَولاَ إذ دَخَلتَ جَنَّتَكَ قُلتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ)
وَقولُهُ (وَلَو شَاءَ اللهُ مَا اقتَتَلوُا وَلكِنَّ اللَّهَ يَفعَلُ مَا يُرِيدُ) .

روى ابو داود فى سننته عن ابى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قرا هذه الآية (ان الله كان سميعا بصيرا) فوضع ابهامه على اذنه والتى تليها على عينـــه .

ومعنى الحديث انه سبحانه يسمع بسمع ويرى بعين فهو حجة على بعض الاشاعرة الذين يجعلون سمعه علمه بالمسموعات وبصره علمه بالمبصرات ، وهو تفسير خاطىء ، فان الاعمى يعلم بوجود السماء ولا يراها ، والاصم يعلم بوجود الاصوات ولا يسمعها .

قوله (ولولا اذ دخلت ، الخ) هذه الآيات دلت على اثبات صفتى الارادة والمشيئة ، والنصوص فى ذلك لا تحصى كثرة .

والاشاعرة يثبتون ارادة واحـــدة قديمـــة تعلقـــت فى الازل بكل المرادات فيلزمهم تخلف المراد عن الارادة ، واما المعتزلـــــة فعلى مذهبهم فى نفى الصفات لا يثبتون فى صفة الارادة ، ويقولـــون انه يريد بارادة حادثة لا فى محل ، فليزمهم قيام الصفة بنفسها وهو من ابطـــل الباطـــل .

واما اهل الحق فيقولون ان الارادة على نوعين :

(١) ارادة كونية ترادفها المشيئة ، وهما تتعلقان بكل ما يشاء الله فعله واحداثه ، فهو سبحانه اذا اراد شيئا وشاءه كان عقب ارادته له كما قال تعالى (وانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكـــــون)

وفى الحديث الصحيح (ما شاء الله كان وما لم يشا لم يكن) .

(٢) ارادة شرعية تتعلق بما يأمر الله به عباده مما يحبه ويرضاه

وَقَولُهُ (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنعَامِ إلاَّ مَا يُتلَى عَلَيكُم غَيــرَ مُحِلِّي الصَّيدِ وَأَنتُم حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحكُمُ مَا يُرِيدُ) .

وَقَولُهُ (فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهدِيَهُ يَشرَح صَدرَهُ لِلإِسلَامِ ، وَمَن يُرِد أَن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيِّقاً حَرجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) .

وهى المذكورة فى مثل قوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ولا تلازم بين الارادتين بل قد تتعلق كل منهما بما لا تتعلق به الاخرى فبينهما عموم وخصوص من وجه . فالارادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصــى ، واخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل ايمان الكافر وطاعة الفاسق .

والارادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به واقعا كان او غير واقع ، واخص من جهة أن الواقع بالارادة الكونية قــــد يكون غير مأمــــور بـــه .

والحاصل ان الارادتين قد تجتمعان معا فى مثل ايمان المؤمــن وطاعة المطيع ، وتنفرد الكونية فى مثــل كفر الكافر ومعصيــــة العاصى ، وتنفرد الشرعية فى مثل ايمان الكافر وطاعة العاصــى

وقوله تعالى (ولولا اذ دخلت جنتك) الآية ، هذا من قول الله حكاية عن الرجل المؤمن لزميله الكافر صاحب الجنتين يعظه به أن يشكر نعمة الله عليه ويردها الى مشيئة الله ويبرأ من حوله وقوته فانه لا قوة الا بالله .

وقوله (ولو شاء الله ما اقتتلوا) الآية ، اخبار عما وقع بين اتباع الرسل من بعدهم من التنازع والتمادى بغيا بينهم وحسدا ، وان ذلك انما كان بمشيئة الله عز وجل ، ولو شاء عدم حصولــه ما حصل ولكنه شاءه فوقــع .

وقوله (فمن يرد الله ان يهديه الخ) الآية تدل على ان كلا من

وَقوله (وَأَحسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحسِنِين ـــ وَأَقسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المقسِطِينَ ـــ)

الهداية والضلال بخلق الله عز وجل ، فمن يرد هدايته ، اى الهامه وتوفيقه يشرح صدره للاسلام بأن يقذف فى قلبه نورا فيتسع لـــه وينبسط كما ورد فى الحديث ـــ ومن يرد اضلاله وخذلانه يجعـــل صدره فى غاية الضيق والحرج ، فلا ينفذ اليه نور الايمان . وشبه ذلك بمن يَصَّعَدُ فى السمـــاء .

تضمنت هذه الآيات اثبات افعال له تعالى ناشئة عن صفة المحبة ومحبة الله عز وجل لبعض الاشخاص والاعمال والاخلاق صفـــة له قائمة به ، وهى من صفات الفعل الاختيارية التى تتعلق بمشيئته

فهو يحب بعض الاشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغـــة وينفى الاشاعرة والمعتزلة صفة المحبة بدعوى انها توهم نقصا ، اذ المحبة فى المخلوق معناها ميله الى ما يناسبه او يستلذه ، فاما الاشاعرة فيرجعونها الى صفة الارادة ، فيقولون ان محبة الله لعبده لا معنى لها الا ارادته لاكرامه ومثوبته .

وكذلك يقولون فى صفات الرضى والغضب والكراهية والسخط كلها عندهم بمعنى ارادة الثواب والعقاب .

واما المعتزلة فلانهم لا يثبتون ارادة قائمة به ، فيفسرون المحبة بانها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء بناء على مذهبهم فى وجوب اثابة المطيع وعقاب العاصى .

واما اهل الحق فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به فلا تقتضى عندهم نقصا ولا تشبيها .

كما يثبتون لازم تلك المحبة وهى ارادته سبحانه اكرام من يحبه واثابته ، وليت شعرى بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قولـــه

فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ـ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) . وَقَوْلُهُ (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) .

عليه السلام فى حديث ابى هريرة « ان الله عز وجل اذا أحب عبدا قال لجبريل عليه السلام انى أحب فلانا فأحبه ، قال فيقول جبريل عليه السلام لاهل السماء : ان ربكم عز وجل يحب فلانا فأحبوه ، قال فيحبه اهل السماء ويوضع له القبول فى الارض ، واذا ابغضه فمثل ذلك) رواه الشيخان .

وقوله تعالى فى الآية الاولى (واحسنوا) أمر بالاحسان العام فى كل شيء لا سيما فى امور الفقه المامور بها قبل ذلك ، والاحسان فيها يكون بالبذل وعدم الامساك ، أو بالتوسط بين التقتير والتبذير ، وهو القوام الذى أمر الله به فى سورة الفرقان .

روى مسلم فى صحيحه عن شداد بن اوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله كتب الاحسان على كل شيء ، فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد احدكم شفرته وليرح ذبيحته » واما قوله (ان الله يحب المحسنين) فهو تعليل للامر بالاحسان فانهم اذا علموا أن الاحسان موجب لمحبته سارعوا الى امتثال الامر به .

واما قوله فى الآية الثانية (واقسطوا) فهو امر بالاقساط وهو العدل فى الحكم بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين ، وهو من قسط اذ جار ، فالهمزة فيه للسلب ، ومن اسمائه تعالى المقسط ، وفى الآية الحث على العدل وفضله ، وانه سبب لمحبة الله عز وجل

واما قوله تعالى (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) فمعناه اذا كان بينكم وبين احد عهد كهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام

وَقَولُهُ (فَسَوفَ يَاتِي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ). وَقَولُهُ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الذينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَرصُوصٌ) .
وَقَولُهُ (وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ) .

فاستقيموا لهم على عهدهم مدة استقامتهم لكم ، فما هنا مصدريه ظرفية ثم علل ذلك الامر بقوله (ان الله يحب المتقين) أى يحب الذين يتقون الله فى كل شىء ومنه عدم نقض العهود .

وأما قوله (ان الله يحب التوابين الخ) فهو اخبار من الله سبحانه عن محبته لهذين الصنفين من عباده .

أما الاول فهم التوابون ، إى الذين يكثرون التوبة والرجوع الى الله عز وجل بالاستغفار مما الموا به على ما تقتضيه صيغة المبالغة ، فهم بكثرة التوبة قد تطهروا من الاقذار والنجاسات المعنوية التى هى الذنوب والمعاصى .

واما الثانى فهم المتطهرون الذين يبالغون فى التطهر ، وهو التنظيف بالوضوء أو بالغسل من الاحداث والنجاسات الحسية .

وقيل المراد بالمتطهرين هنا الذين يتنزهون عن اتيان النساء فى زمن الحيض أو فى أدبارهن ، والحمل على العموم أولى .

وأما قوله تعالى (قل أن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) فقد روى عن الحسن فى سبب نزولها أن قوما ادعوا أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم ، وفى هذه الاية قد شرط الله لمحبته اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا ينال تلك المحبة الا من أحسن الاتباع ، والاستمساك بهديه عليه السلام .

قوله (وهو الغفور الخ) تضمنت الآية اثبات اسمين من الاسماء الحسنى وهما « الغفور والودود » أما الاول فهو مبالغة الغفر ومعناه الذى يكثر منه الستر على المذنبين من عباده والتجاوز

عن مؤاخذتهم .

واصل الغفر الستر ، ومنه يقال : الصبغ أغفر للوسخ . ومنه المغفر لسترة الرأس .

واما الثانى فهو من الود الذى هو خالص الحب والطفه ، وهو اما من فعول بمعنى فاعل ، فيكون معناه الكثير الود لاهل طاعته والمتقرب اليهم بنصرته ومعونته .

واما من فعول بمعنى مفعول فيكون معناه المودود لكثرة احسانه المستحق لان يوده خلقه فيعبدوه ويحمدوه .

واما قوله (بسم الله الرحمن الرحيم) وما بعدها من الآيات فقد تضمنت اثبات أسمائه الرحمن والرحيم واثبات صفتى الرحمة والعلم .

وقد تقدم فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم الكلام على هذين الاسمين وبيان الفرق بينهما ، وان أولهما دال على صفة الذات والثانى دال على صفة الفعل ، وقد انكر الاشاعرة والمعتزلة صفة الرحمة بدعوى انها فى المخلوق ضعف وخور وتألم للمرحوم ، وهذا من اقبح الجهل فان الرحمة انما تكون من الاقوياء للضعفاء ، فلا تستلزم ضعفا ولا خورا بل قد تكون مع غاية العزة والقدرة . فالانسان القوى يرحم ولده الصغير وأبويه الكبيرين ومن هو أضعف منه ، واين الضعف والخور وهما من أذم الصفات من الرحمة التى وصف الله نفسه بها واثنى على أوليائه المتصفين بها وأمرهم أن يتواصووا بها .

وقوله (ربنا وسعت الخ) من كلام الله عز وجل حكاية عن حملة العرش والذين حوله ، يتوسلون الى الله عز وجل بربوبيته وسعة

(وَكَانَ بِالمؤمِنِينَ رَحِيماً ـ وَرَحمَتِي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ ـ كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفسِهِ الرَّحمَةَ ـ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ـ فَاللهُ خَيرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرحَمُ الرَّاحِمِين) .

قَولُهُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ ـ وَمَن يَقتُل مُؤمِناً مُتَعَمِّداً

علمه ورحمته فى دعائهم للمؤمنين ، وهو من أحسن التوسلات التى يرجى معها الاجابة .

وانصب قوله رحمة وعلما على التمييز المحول عن الفاعل ، والتقدير وسعت رحمتك وعلمك كل شىء ، فرحمته سبحانه وسعت فى الدنيا المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ولكنها يوم القيامة تكون خاصة بالمتقين كما قال تعالى (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة) الآية . وقوله تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) اى أوجبها على نفسه تفضلا واحسانا ولم يوجبها عليه احد .

وفى حديث أبى هريرة فى الصحيحين « ان الله لما خلق الخلق كتب كتابا فهو عنده فوق العرش ان رحمتى سبقت او تسبق غضبى .

واما قوله « فالله خير حافظا » فالحافظ والحفيظ مأخوذ من الحفظ وهو الصيانة . ومعناه الذى يحفظ عباده بالحفظ العام فييسر لهم أقواتهم ويقيهم أسباب الهلاك والعطب وكذلك يحفظ عليهم أعمالهم ويحصى أقوالهم ويحفظ أولياءه بالحفظ الخاص فيعصمهم عن مواقعة الذنوب ويحرسهم من مكايد الشيطان وعن كل ما يضرهم فى دينهم ودنياهم ، وانتصب (حافظاً) تمييزا (لخير) الذى هو افعل تفضيل .

قوله (رضى الله عنهم الخ) تضمنت هذه الآيات اثبات بعض صفات الفعل من الرضى لله الغضب ، واللعن والكره ، والسخط والمقت والاسف .

وهى عند أهل الحق صفات حقيقية لله عز وجل على ما يليق به

فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيهِ وَلَعَنَهُ).وَقَولُهُ (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضوَانَهُ) .

ولا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك ، ولا يلزم منها ما يلزم فى المخلوق ، فلا حجة للاشاعرة والمعتزلة على نفيها ولكنهم ظنوا ان اتصاف الله عز وجل بها يلزمه ان تكون هذه الصفات فيه على نحو ما هى فى المخلوق ، وهذا الظن الذى ظنوه فى ربهم ارداهم فأوقعهم فى حماة النفى والتعطيل ، والاشاعرة يرجعون هذه الصفات كلها الى الارادة كما علمت سابقا ، فالرضى عندهم ارادة الثواب والغضب والسخط الخ ارادة العقاب .

واما المعتزلة فيرجعونها الى نفس الثواب والعقاب

وقوله سبحانه (رضى الله عنهم ورضوا عنه) اخبار عما يكون بينه وبين اوليائه من تبادل الرضى والمحبة ، اما رضاه عنهم فهو اعظم واجل من كل ما أعطوا من النعيم كما قال سبحانه (ورضوان من الله اكبر) واما رضاهم عنه فهو رضى كل منهم بمنزلته مهما كانت وسروره بها حتى يظن انه لم يؤت احد خيرا مما أوتى ، وذلك فى الجنة .

واما قوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) الآية ، فقد احترز بقوله مؤمنا عن قتل الكافر ، وبقوله متعمدا ، اى قاصدا لذلك (بأن يقصد من يعلمه آدميا معصوما فيقتله بما يغلب على الظن موته به) عن القتل الخطأ .

وقوله (خالدا فيها) اى مقيما على جهة التابيد ، وقيل الخلود المكث الطويل واللعن هو الطرد والابعاد عن رحمة الله ، واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعى عليه بها .

وقد استشكل العلماء هذه الآيات من حيث انها تدل على ان

(فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمنَا مِنهُـم) وَقَولُه (وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُـم فَثَبَّطَهُم) وَقَولُهُ (كَبُرَ مَقتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَالاَ تَفعَلُونَ) .

وَقَولُهُ (هَل يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَاتِيَهُم اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالملائكَةُ وَقُضِـيَ الأَمرُ)

القاتل عمدا لا توبة له وانه مخلد فى النار ، وهذا معارض لقوله تعالى (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقد اجابوا عن ذلك بعدة اجوبة منهـا :

١ ـ أن هذا الجزاء لمن كان مستحلا لقتل المؤمن عمدا .

٢ ـ أن هذا هو جزاؤه الذى يستحقه لو جوزى مع امكان أن لا يجازى بأن يتوب أو يعمل صالحا يرجح بعمله السيء .

٣ ـ أن الآية واردة مورد التغليظ والزجر .

٤ ـ أن المراد بالخلود المكث الطويل كما قدمنا .

وقد ذهب ابن عباس وجماعة الى ان القاتل عمدا لا توبة له حتى قال ابن عباس : ان هذه الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء ، والصحيح أن على القاتل حقوقا ثلاثة : حقا لله وحقا للورثة وحقا للقتيل ، فحق الله يسقط بالتوبة ، وحق الورثة يسقط بالاستيفـاء فى الدنيا او العفو ، واما حق القتيل فلا يسقط حتى يجتمع بقاتله يوم القيامة ويأتى راسه فى يده ويقول يا رب سل هذا فيم قتلنى ؟

وأما قوله (فلما آسفونا الخ) فالاسف يستعمل بمعنى شدة الحزن وبمعنى شدة الغضب والسخط وهو المراد فى الآية والانتقام المجازاة بالعقوبة مأخوذا من النقمة وهى شدة الكراهة والسخط .

قوله (هل ينظرون الخ) فى هذه الآيات اثبات صفتين من صفات الفعل له سبحانه وهما صفتا الاتيان والمجيء والذى عليه اهل السنة

وَقَوْلُهُ (وَيَبْقَى وَجهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ـ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجهَــــهُ)

والجماعة الايمان بذلك على حقيقته والابتعاد عن التأويل الذى هو فى الحقيقة الحاد وتعطيل .

ولعل من المناسب ان ننقل الى القارىء هنا ما كتبه حامل لواء التجهم والتعطيل فى هذا العصر وهو المدعو بزاهد الكوثرى

قال فى حاشيته على كتاب الاسماء والصفات للبيهقــى ما نصه : (قال الزمخشرى ما معناه ان الله يأتى بعذاب فى الغمام الذى ينتظـر منه الرحمة ، فيكون مجىء العذاب من حيث تنتظر الرحمــة افظــع واهول) وقال امام الحرمين فى معنى الباء كما سبق ، وقال الفخــر الرازى أن يأتيهم أمر الله . ا هـ .

فانت ترى من نقل هذا الرجل عن اسلافه فى التعطيل مـــدى اضطرابهم فى التخريج والتاويل .

على ان الآيات صريحة فى بابها لا تقبل شيئا من تلك التأويلات فالآية الاولى تتوعد هؤلاء المصرين على كفرهــم وعنادهم واتباعهم الشيطان بأنهم ما ينتظرون الا ان يأتيهم الله عز وجل فى ظلل الغمـــام لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة ، ولهذا قال بعد ذلك (وقضــى الامــر) والآية الثانية اشد صراحة اذ لا يمكن تأويل الاتيان فيها بأنه اتيان الامر او العذاب لانه ردد فيها بين اتيان الملائكة واتيان الرب واتيان بعض آيات الرب سبحانه .

وقوله فى الآية التى بعدها (وجاء ربك والملك صفا صفــا) لا يمكن حملها على مجىء العذاب ، لان المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء ، والملائكــة صفوف اجلالا وتعظيما لــه ، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام كما افادته الآية الاخيرة . وهــو

سبحانه يجيء ويأتى وينزل ويدنو وهو فوق عرشه بائن من خلقـــه . فهذه كلها افعال له سبحانه على الحقيقة ، ودعوى المجاز تعطيل لـــه عن فعله واعتقاد ان ذلك المجيء والاتيان من جنس مجيء المخلوقين واتيانهم نزوع الى التشبيه يفضى الى الانكار والتعطيل .

قوله (ويبقى وجه ربك الخ) تضمنت هاتان الآيتان اثبـــات صفة الوجه لله عز وجل .

والنصوص فى اثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصى كثرة وكلها تنفى تأويل المعطلة الذين يفسرون الوجه بالجهة أو الثواب أو الذات ، والذى عليه أهل الحق أن الوجه صفة غير الذات ولا يقتضى اثباته كونه تعالى مركبا من اعضاء كما يقوله المجسمة ، بل هو صفة لله على ما يليق به فلا يشبه وجها ولا يشبهه وجه .

واستدل المعطلة بهاتين الآيتين على أن المراد بالوجه الذات اذ لا خصوص للوجه فى البقاء وعدم الهلاك .

ونحن نعارض هذا الاستدلال بانه لو لم يكن لله عز وجل وجه على الحقيقة لما جاز استعمال هذا اللفظ فى معنى الذات فان اللفظ الموضوع لمعنى لا يمكن ان يستعمل فى معنى آخر الا اذا كان المعنـــى الاصلى ثابتا للموصوف حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم الـــى لازمه ، على انه يمكن دفع مجازهم بطريق آخر فيقال انه أسند البقاء الى الوجه ، ويلزم منه بقاء الذات بدلا من ان يقال أطلق الوجـــه واراد الذات . وقد ذكر البيهقى نقلا عن الخطابى انه تعالى لمـــا اضاف الوجه الى الذات واضاف النعت الى الوجه فقال (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) دل على أن ذكـــر الوجه ليس بصلـــة وان قوله ذو الجلال والاكرام صفة للوجه والوجه صفة للذات .

وكيف يمكن تاويل الوجه بالذات او بغيرها فى مثل قوله عليـــه

وَقَوله (مَا مَنَعَكَ أَن تَسجُدَ لِمَا خَلَقتُ بِيَدِي ـ وَقَالَت اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغلُولَةٌ . غُلَّت أَيدِيهِم وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا

السلام فى حديث الطائف « أعوذ بنور وجهك الذى اشرقت له الظلمات الخ » وقوله فيما رواه ابو موسى الاشعرى « حجابه النور او النار لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه .

قوله (ما منعك الخ) تضمنت هاتان الآيتان اثبات اليدين صفة حقيقة له سبحانه على ما يليق به ، فهو فى الآية الاولى يوبخ ابليس على امتناعه عن السجود لآدم الذى خلقه بيديه ، ولا يمكن حمل اليدين هنا على القدرة ، فان الاشياء جميعا حتى ابليس خلقها الله بقدرته فلا يبقى لآدم خصوصية يتميز بها .

وفى حديث عبد الله بن عمرو « ان الله عز وجل خلق ثلاثة اشياء بيده : خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده ، فتخصيص هذه الثلاثة بالذكر مع مشاركتها لبقية المخلوقات فى وقوعها بالقدرة دال على اختصاصها بأمر زائد .

وايضا فلفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله الا فى اليد الحقيقية ولم يرد قط بمعنى القدرة او النعمة فانه لا يسوغ أن يقال خلقه الله بقدرتين او بنعمتين ، على انه لا يجوز اطلاق اليدين بمعنى النعمة أو القدرة او غيرهما الا فى حق من اتصف باليدين على الحقيقة ، ولذلك لا يقال للريح يد ولا للماء يد .

واما احتجاج المعطلة بأن اليد قد افردت فى بعض الآيات وجاءت بلفظ الجمع فى بعضها فلا دليل فيه ، فان ما يصنع بالاثنين قد ينسب الى الواحد ، تقول رايت بعينى وسمعت باذنى والمراد عيناى واذناى وكذلك الجمع ياتى بمعنى المثنى احيانا كقوله تعالى (ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما) والمراد قلباكما .

بَـــل يَدَاه مَبسُوطَتَانِ يُنفِــقُ كَيفَ يَشَـاءُ) وَقَولُهُ (فَاصبِر لِحُكـمِ رَبِّــكَ فَإِنَّــكَ بِأَعيُنِنَــا ــ وَحَمَلنَــاهُ عَــلَى ذَاتِ أَلوَاحٍ وَدُسُــرٍ ــ تَجرِي بِأَعيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ، وَأَلقَيتُ عَلَيكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصنَعَ عَلَــى عَينِــي) .

وكيف يتأتى حمل اليد على القدرة او النعمة مع ما ورد مــن اثبات الكف والاصابع واليمين والشمال والقبض والبسط وغيــر ذلك مما لا يكون الا لليد الحقيقية .

وفى الآية الثانية يحكى الله سبحانه مقالة اليهود قبحهم الله فى ربهم ووصفهم اياه حاشاه بأن يده مغلولة اى ممسكة عن الانفاق .

ثم اثبت لنفسه سبحانه عكس ما قالوا ، وهو ان يديه مبسوطتان بالعطاء ينفق كيف يشاء ، كما جــاء فى الحديث ان يمين الله ملأى سَحَّاء الليل والنهار لا تغيضها نفقة . ترى لو لم يكن لله يدان علــى الحقيقة هل كان يحسن هذا التعبير ببسط اليدين .

الا شاهت وجوه المتأولين .

قوله (فأصبر لحكم ربك الخ) فى هذه الآيات الثلاث يثبت الله سبحانه لنفسه عينا يرى بها جميع المرئيات ، وهى صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به فلا يقتضى اثباتها كونها جارحة مركبــة من شحم وعصب وغيرهما .

وتفسير المعطلة لها بالرؤية أو بالحفظ والرعاية نفى وتعطيل

واما افرادها فى بعض النصوص وجمعها فى البعض الآخــر فلا حجة لهم فيه على نفيها ، فان لغة العرب تتسع لذلك ، فقــد يعبر فيها عن الاثنين بلفظ الجمع ، ويقوم فيها الواحد مقام الاثنين كما قدمنا فى اليديــــن .

وَقَوْلُهُ (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوجِهَا وَتشتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) وَقَوْلُهُ (وَلَقَد سَمِعَ اللهُ قَولَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحنُ أَغنِيَاء) .

على أنه لا يمكن استعمال لفظ العين فى شىء من هذه المعانى التى ذكروها الا بالنسبة لمن له عين حقيقية فهل يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا ان الله يتمدح بما ليس فيه فيثبت لنفسه عينا وهو عاطل عنها ؟ وهل يريدون أن يقولوا ان رؤيته للاشياء لا تقع بصفة خاصة بها بل هو يراها بذاته كلها ، كما تقول المعتزلة انه قادر بذاته مريد بذاته الخ وفى الآية الاولى يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر لحكمه والاحتمال لما يلقاه من أذى قومه ، ويعلل ذلك الامر بانه بمرأى منه وفى كلاءته وحفظه .

وفى الآية الثانية يخبر الله عز وجل عن نبيه نوح عليه السلام انه لما كذبه قومه وحقت عليهم كلمة العذاب واخذهم الله بالطوفان حمله هو ومن معه من المؤمنين على سفينة ذات الواح عظيمة من الخشب ودسر ، أى مسامير (جمع دسار) تشد بها الالواح ، وانها كانت تجرى بعين الله وحراسته .

وفى الآية الثالثة : خطاب من الله لنبيه موسى عليه السلام بأنه القى عليه محبة منه ، يعنى احبه هو سبحانه وحببه الى خلقه ، وانه صنعه على عينه ورباه تربية استعد بها للقيام بما حمله من رسالة الى فرعون وقومه .

قوله (قد سمع الله الخ) هذه الآيات ساقها المؤلف لاثبات صفات السمع والبصر والرؤية .

اما السمع : فقد عبرت عنه الآيات بكل صيغ الاشتقاق وهى سمع ويسمع وسميع ونسمع وأسمع ، فهو صفة حقيقية لله يدرك

وَقَوْلُهُ (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ — إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى — أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى — الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ — وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) .

بها الاصوات كما قدمنا .

واما البصر : فهو الصفة التى يدرك بها الاشخاص والالوان والرؤية لازمة له ، وقد جاء فى حديث ابى موسى (يا ايها الناس اربعوا على انفسكم انكم لا تدعون اصم ولا غائبا ولكن تدعون سميعا بصيرا ان الذى تدعون اقرب الى احدكم من عنق راحلته) .

وكل من السمع والبصر صفة كمال وقد عاب الله على المشركين عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر ، وقد نزلت الآية الاولى فى شأن خولة بنت ثعلبة حين ظاهر منها زوجها فجاءت تشكو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحاوره وهو يقول لها : ما اراك الا قد حرمت عليه .

اخرج البخارى فى صحيحه عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت « الحمد لله الذى وسع سمعه الاصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا فى ناحية من البيت ما اسمع ما تقول فانزل الله عز وجل (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) الآيات .

واما الآية الثانية : فقد نزلت فى فنحاص اليهودى الخبيث حين قال لابى بكر رضى الله عنه لما دعاه الى الاسلام : والله يا ابا بكر ما بنا الى الله من حاجة من فقر وانه الينا لفقير ولو كان غنيا ما استقرضنا) . واما الآية الثالثة : فَأَمْ بمعنى بل والهمزة فهى أَمْ المنقطعة، والاستفهام انكارى يتضمن معنى التوبيخ ، والمعنى بل

وَقَولُهُ (وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ) وَقولُهُ (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيرُ المَاكِرِين) .

ايظن هؤلاء فى تخفيهم واستتارهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى نسمع ذلك وحفظتنا لديهم يكتبون ما يقولون وما يفعلون .

واما الآية الرابعة : فهى خطاب من الله عز وجل لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام حين شكوا الى الله خوفهما من بطش فرعون بهما ، فقال لهما : « لا تخافا اننى معكما اسمع وارى » .

واما الآية الخامسة فقد نزلت فى شأن ابى جهل لعنه الله حين نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند البيت فنزل قوله تعالى (ارايت الذى ينهى عبدا اذا صلى ، ارايت ان كان على الهدى او امر بالتقوى ، ارايت ان كذب وتولى ، الم يعلم بأن الله يرى) الخ السورة

وقوله (وهو شديد المحال الخ) تضمنت هذه الآيات اثبات صفتى المكر والكيد وهما من صفات الفعل الاختيارية ، ولكن لا ينبغى أن يشتق له من هاتين الصفتين اسم ، فيقال ماكر وكائد بل يوقف عندما ورد به النص من انه خير الماكرين ، وأنه يكيد لاعدائه الكافرين .

اما قوله سبحانه (وهو شديد المحال) فمعناه شديد الاخذ بالعقوبة كما فى قوله تعالى (ان بطش ربك لشديد) (ان اخذه اليم شديد) .

وقال ابن عباس : معناه شديد الحول ، وقال مجاهد : شديد القوة والاقوال متقاربة .

واما قوله (والله خير الماكرين) فمعناه انفذهم وأسرعهم مكرا .

وقد فسر بعض السلف مكر الله بعباده بأنه استدراجهم بالنعم من حيث لا يعلمون ، فكلما احدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة ، وفى

وَقَولُهُ (وَمَكَرُوا مَكراً وَمَكَرنا مَكراً وَهُم لَا يَشعُرُون) وَقَولُهُ (إِنَّهُم يَكِيدُونَ كَيداً وَأَكِيدُ كَيداً) وَقَولُهُ (إِنْ تُبـدُو خَيراً أَو تُخفُوهُ

الحديث « اذا رايت الله يعطى العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلم انما ذلك منه استدراج .

وقد نزلت هذه الآية فى شان عيسى عليه السلام حين أراد اليهود قتله فدخل بيتا فيه كوة وقد ايده الله بجبريل عليه السلام فرفعه الى السماء من الكوة ، فدخل عليه يهودا ليدلهم عليه فيقتلوه فالقى الله شبه عيسى على ذلك الخائن ، فلما دخل البيت فلم يجد فيه عيسى خرج اليهم وهو يقول ما فى البيت أحد ، فقتلوه وهم يرون انه عيسى فذلك قوله تعالى (ومكروا ومكر الله) .

واما قوله تعالى (ومكروا مكرا الخ) فهى فى شأن الرهط التسعة من قوم صالح عليه السلام حين تقاسموا بالله ليبيتنه وأهله ، اى ليقتلنه بياتا هو واهله ثم ليقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله ، فكان عاقبة هذا المكر منهم أن مكر الله بهم فدمرهم وقومهم اجمعين .

قوله (ان تبدوا خيرا الخ) هذه الآيات تضمنت اثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة والتبارك والجلال والاكرام .

فالعفو الذى هو اسمه تعالى معناه المتجاوز عن عقوبة عباده اذا هم تابوا اليه وانابوا كما قال تعالى (وهو الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات) .

ولما كان اكمل العفو ما كان عن قدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة جاء هذان الاسمان الكريمان العفو والقدير ، مقترنين فى هذه الآية وفى غيرها .

واما القدرة فهى الصفة التى تتعلق بالممكنات ايجادا واعداما

أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا . وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

فكل ما كان ووقع من الكائنات واقع بمشيئته وقدرته كما فى الحديث « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » وأما قوله تعالى (وليعفوا وليصفحوا) الآية ، فقد نزلت فى شأن ابى بكر رضى الله عنه حين حلف لاينفق على مسطح بن اثاثة ، وكان ممن خاضوا فى الافك ، وكانت ام مسطح بنت خالة ابى بكر ، فلما نزلت هذه الآية قال ابو بكر : والله انى لاحب ان يغفر الله لى ووصل مسطحا .

واما قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فقد نزلت فى شأن عبد الله بن ابى بن سلول رئيس المنافقين ، وكان فى بعض الغزوات قد اقسم ليخرجن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو واصحابه من المدينة فنزل قوله تعالى (يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل) يقصد بالاعز قبحه الله نفسه واصحابه . ويقصد بالاذل رسول الله ومن معه من المؤمنين ، فرد الله عز وجل عليه بقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) .

والعزة صفة أثبتها الله عز وجل لنفسه ، قال تعالى (وهو العزيز الحكيم) وقال (وكان الله قويا عزيزا) واقسم بها سبحانه كما فى حديث الشفاعة « وعزتى وكبريائى وعظمتى لاخرجن منها من قال لا اله الا الله » واخبر عن ابليس انه قال « فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين » .

وفى صحيح البخارى وغيره عن ابى هريرة « بينا ايوب عليه السلام يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل يحثى فى ثوبه فناداه ربه : يا ايوب الم اكن اغنيتك عما ترى ؟ قال بلى وعزتك

وَقَولُه عَن إبليس (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغوِيَنَّهُم أَجمَعِين) وَقَولُهُ (تَبَارَكَ اسمُ رَبِّكَ ذِي الجَلَالِ وَالإكرَامِ) .

وَقَولُهُ (فَاعبُدهُ وَاصطَبِر لِعِبَادَتِهِ هَل تَعلَمُ لَهُ سَمِيّاً ــ وَلَم يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَد

ولكن لا غنى لى عن بركتـــك » .

وقد جاء فى حديث الدعاء الذى علمه النبى صلى الله عليه وسلم لما كان به وجع « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

والعزة تأتى بمعنى الغَلَبة والقهر من عَزَّيَعُزُّ بضـــم العين فى المضارع يقال عزه اذا غلبه ، وتأتي بمعنى القوة والصلابة من عَزَّ يَعَزُّ بفتحها ومنه أرض عزاز للصلبة الشديدة ، وتأتى بمعنى علو القدر والامتناع من الاعداء من عَزَّ يَعِزُّ بكسرها ، وهذه المعانى كلها ثابتة لله عـــز وجـــل .

واما قوله تعالى (تبارك اسم ربك) فانه من البركة بمعنى دوام الخير وكثرته ، وقوله (ذو الجلال) اى صاحب الجـــلال والعظمة سبحانه الذى لا شىء اجل ولا اعظم منه (والاكـــرام) الذى يكرم عما لا يليق به وقيل الذى يكرم عباده الصالحين بأنـــواع الكرامة فى الدنيا والآخرة والله اعلم .

قوله (فاعبده الخ) تضمنت هذه الآيات الكريمة جملة مـــن صفات التلوب وهى نفى السمى والكفؤ والنديد والولد والشريك والولى من ذل وحاجة . كما تضمنت بعض صفـــات الاثبات من الملك والحمد والقدرة والكبرياء والتبارك .

اما قوله تعالى (هل تعلم له سميا) فقد قال شيخ الاسلام رحمه الله « قال اهل اللغة : هل تعلم له سميا ، اى نظيرا استحـــق مثل اسمه ويقال مساميا يساميه ، وهذا معنى ما يروى عن ابـــن عباس « هل تعلم له سميا » ، مثلا او شبيها) .

وَقَولُهُ (فَلَا تَجعَلُوا لِلهِ أَندَاداً وَأَنتُم تَعلَمُو ن ــ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللَّهِ)

والاستفهام فى الآية انكارى معناه النفى ، اى لا تعلم له سميا .

واما قوله (ولم يكن له كفوا احــد) فالمراد بالكفؤ المكافىء المساوى . فهذه الآية تنفى عنه سبحانه النظير والشبيه من كل وجه لأن (احداً) وقع نكرة فى سياق النفى فيعم ، وقد تقدم الكلام علــى تفسير سورة الاخلاص كلها فليرجع اليها .

واما قوله (فلا يجعلوا لله اندادا الخ) فالانداد جمع ند ومعناه كما قيل النظير المناوىء ، ويقال ليس لله نِدّ ولا ضِدّ ، والمراد نفى ما يكافئه ويناوئه ، ونفى ما يضاده وينافيه .

وجملة (وانتم تعلمون) وقعت حالا من الواو فى(تجعلوا)، المعنى اذا كنتم تعلمون ان الله هو وحده الذى خلقكم ورزقكم وان هذه الآلهة التى جعلتموها له نظراء وامثال وساويتموها به فــى استحقاق العبادة لا تخلق شيئا بل هى مخلوقة ولا تملك لكم ضرا ولا نفعا فاتركوا عبادتها وافردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم .

واما قوله (ومن الناس من يتخذ الخ) فهو اخبار من الله عن المشركين بانهم يحبون آلهتهم كحبهم لله عز وجل ، يعنى يجعلونها مساوية له فى الحب « والذين آمنوا اشد حبا لله » من حب المشركين لآلهتهم لانهم اخلصوا له الحب وافردوه به . اما حب المشركــين لآلهتهم فهو موزع بينها ، ولا شك ان الحب اذا كان لجهة واحــدة كان امكن واقوى . وقيل : المعنى انهم يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله والذين آمنوا اشد حبا لله من الكفار لاندادهم .

وَقَولُهُ (وَقُلِ الحَمدُ لِلَّهِ الذِي لَم يَتَّخِذ وَلَداً وَلَم يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلكِ وَلَم يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذلِّ وَكَبِّرهُ تَكبِيراً ــ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ)

واما قوله تعالى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) الآية ، فقد تقدم الكلام فى معنى الحمد ، وانه الثناء باللسان على النعمة وغيرها ، وقلنا ان اثبات الحمد له سبحانه متضمن لاثبات جميع الكمالات التى لا يستحق الحمد المطلق الا من بلغ غايتها .

ثم نفى سبحانه عن نفسه ما ينافى كمال الحمد من الولد والشريك والولى من الذل ، اى من فقر وحاجة ، فهو سبحانه لا يوالى احدا من خلقه من اجل ذلة وحاجة اليه ، ثم أمر عبده ورسوله ان يكبره تكبيرا ، اى يعظمه تعظيما وينزهه عن كل صفة نقص وصفه بها أعداؤه من المشركين .

واما قوله (يسبح لله ، الخ) فالتسبيح هو التنزيه والابعاد عن السوء كما تقدم .

ولا شك أن جميع الاشياء فى السموات وفى الارض تسبح بحمد ربها وتشهد له بكمال العلم والقدرة والعزة والحكمة والتدبير والرحمة قال تعالى (وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)

وقد اختلف فى تسبيح الجمادات التى لا تنطق هل هو بلسان الحال أو بلسان المقال وعندى ان الثانى ارجح بدليل قوله تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) اذ لو كان المراد تسبيحها بلسان الحال لكان ذلك معلوما فلا يصح الاستدراك ، وقد قال تعالى خبرا عن داود عليه السلام (انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق والطير محشورة كل له اواب) .

وَقولُهُ (تَبَارَكَ الذِي نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَى عَبدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً الذِي لَهُ مُلكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ وَلَم يَتخِذ وَلَداً وَلَم يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقدِيراً) .

وَقولُهُ (مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلَهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعضُهُم عَلَى بَعضٍ ، سُبحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ —

واما قوله تعالى (تبارك الذى الخ) فقد قلنا ان معنى تبارك من البركة وهى دوام الخير وكثرته ولكن لا يلزم من تلك الزيادة سبق النقص ، فان المراد تجدد الكمالات الاختيارية التابعة لمشيئته وقدرته ، فانها تتجدد فى ذاته على وفق حكمته ، فالخلو عنها قبل اقتضاء الحكمة لها لا يعتبر نقصا .

وقد فسر بعضهم التبارك بالثبات وعدم التغير ، ومنه سميت البركة لثبوت مائها وهو بعيد ، والمراد بالفرقان القرآن ، سمى بذلك لقوة تفرقته بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والتعبير (ينزل) بالتشديد لافادة التدرج فى النزول ، وانه لم ينزل جملة واحدة ، والمراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بلقب العبودية للتشريف كما سبق ، والعالمين جمع عالم ، وهو جمع لم يعقل، واختلف فى المراد به ، فقيل الانس ، وقيل الانس والجن ، وهو والصحيح ، فقد ثبت ان النبى صلى الله عليه وسلم مرسل الى الجن ايضا ، وانه يجتمع بهم ويقرأ عليهم القرآن ، وان منهم نفرا أسلم حين سمع القرآن وذهب ينذر قومه به ، كما قال تعالى (وإذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ٧ فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين) والنذير والمنذر هو من يعلم بالشىء مع التخويف وضده البشير أو المبشر وهو من يخبرك بما يسرك .

وقوله (ما اتخذ الله من ولد الخ) تضمنت هذه الآية الكريمة

عَالِمُ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشرِكُون ، فَلَا تَضرِبُوا لِلهِ الأَمثَالَ إِنَّ اللهَ يَعلَمُ وَأَنتُم لَا تَعلَمُون .

أيضا جملة من صفات التنزيه التى يراد نفى ما لا يليق بالله عز وجل عنه ، فقد نزه سبحانه نفسه فيها عن اتخاذ الولد وعن وجود اله خالق معه وعما يصفه به المفترون الكذابون ، كما نهى عن ضرب الامثال له والاشراك به بلا حجة ولا برهان ، والقول عليه سبحانه بلا علم ولا دليل .

فهذه الآية تضمنت اثبات توحيد الالهية واثبات توحيد الربوبية ، فان الله بعدما اخبر عن نفسه بعدم وجود اله معه اوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة فقال (اذا) اى اذ لو كان معه آلهة كما يقول هؤلاء المشركون لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض .

وتوضيح هذا الدليل أن يقال : اذا تعددت الآلهة فلابد أن يكون لكل منهم خلق وفعل ولا سبيل الى التعاون فيما بينهم فان الاختلاف بينهم ضرورى ، كما أن التعاون بينهم فى الخلق يقتضى عجز كل منهم عند الانفراد ، والعاجز لا يصلح الها ، فلابد ان يستقل كل منهم بخلقه وفعله ، وحينئذ فاما أن يكونوا متكافئين فى القدرة لا يستطيع كل منهم أن يقهر الآخرين ويغلبهم فيذهب كل منهم بما خلق ويختص بملكه كما يفعل ملوك الدنيا من انفراد كل بمملكته اذا لم يجد سبيلا لقهر الآخرين ، واما ان يكون احدهم اقوى من الآخرين فيغلبهم ويقهرهم وينفرد دونهم بالخلق والتدبير ، فلابد اذا مع تعدد الآلهة من أحد هذين الامرين ، اما ذهاب كل بما خلق أو علو بعضهم على بعض .

وذهاب كل بما خلق غير واقع لانه يقتضى التنافر والانفصال بين

قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) .

اجزاء العالم مع ان المشاهدة تثبت ان العالم كله كجسم واحد مترابط الاجزاء متسق الانحاء فلا يمكن ان يكون الا اثرا لاله واحد وعلو بعضهم على بعض يقتضى أن يكون الاله هو العالى وحده .

وأما قوله تعالى (فلا تضربوا لله الامثال) فهو نهى له ان يشبهوه بشىء من خلقه فانه سبحانه له المثل الاعلى الذى لا يشركه فيه مخلوق.

وقد قدمنا انه لا يجوز أن يستعمل فى حقه من الاقيسة ما يقتضى المماثلة او المساواة بينه وبين غيره كقياس التمثيل وقياس الشمول . وانما يستعمل فى ذلك قياس الأولَى الذى مضمونه أن كل كمال وجودى غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف به المخلوق ، فالخالق أولَى ان يتصف به لانه هو الذى وهب المخلوق ذلك الكمال ، ولانه لو لم يتصف بذلك الكمال مع امكان ان يتصف به لكان فى الممكنات من هو اكمل منه وهو محال وكذلك كل نقص يتنزه عنه المخلوق فالخالق أولَى بالتنزه عنه .

وأما قوله (قل انما حرم الخ) فانما اداة قصر تفيد اختصاص الاشياء المذكورة بالحرمة فيفهم ان من عداها من الطيبات فهو مباح لا حرج فيه ، كما افادته الآية التى قبلها .

والفواحش جمع فاحشة وهى الفعلة المتناهية فى القبح وخصها بعضهم بما تضمن شهوة ولذة من المعاصى كالزنا واللواط ونحوهما من الفواحش الظاهرة ، وكالكبر والعجب وحب الرياسة من الفواحش الباطنة .

وَقولُهُ (الرَّحمَنُ عَلَى العَرشِ استَوَى) فِي سَبعِ مَوَاضِعَ ، فِي سُورَةِ الأَعرَافِ قَولُهُ (إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ) وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ عَلَيهِ السَّلاَمُ (إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ) .

واما الاثم فمنهم من فسره بمطلق المعصية فيكون المراد منه ما دون الفاحشة ، ومنهم من خصه بالخمر فانها جُمَّاع الاثم ، واما البغى بغير الحق فهو التسلط والاعتداء على الناس من غير ان يكون ذلك على جهة القصاص والمماثلة .

وقوله (وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) وحرم أن تعبدوا مع الله غيره وتتقربوا اليه باى نوع من انواع العبادات والقربات كالدعاء والنذر والذبح والخوف والرجاء ونحو ذلك ، مما يجب ان يخلص فيه العبد قلبه ويسلم وجهه لله وحرم ان يتخذوا من دونه سبحانه اولياء يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله فى عباداتهم ومعاملاتهم كما فعل اهل الكتاب مع الاحبار والرهبان حيث اتخذوهم اربابا من دون الله فى التشريع فاحلوا ما حرم الله وحرموا ما احل الله فاتبعوهم فى ذلك وقوله « ما لم ينزل به سلطانا » قيد لبيان الواقع ، فان كل ما عبد او اتبع او اطيع من دون الله قد فعل به ذلك من غير سلطان .

واما القول على الله بلا علم فهو باب واسع جدا يدخل فيه كل خبر عن الله بلا دليل ولا حجة ، كنفى ما اثبته او اثبات ما نفاه او الالحاد فى آياته بالتحريف والتاويل .

قال العلامة ابن القيم فى كتابه اعلام الموقعين (وقد حرم الله القول عليه بغير علم فى الفتيا والقضاء وجعله من اعظم المحرمات

وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعدِ (اللهُ الذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَونَهَا ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ) وَقَالَ فِي سُورَةِ طَهَ (الرَّحمَنُ عَلَى العَرشِ استَوَى) وَقَالَ فِي سُورَةِ الفُرقَانِ (ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ) .

بل جعله فى المرتبة العليا منها) قال تعالى (قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الآية ، فرتب المحرمات اربع مراتب وبدأ باسهلها وهو الفواحش وثنى بما هو اشد تحريما منه وهو الاثم والظلم ثم ثلث بما هو اعظم تحريما منهما وهو الشرك به سبحانه ثم ربع بما هو اعظم تحريما من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم فى اسمائه وصفاته وافعاله فى دينه وشرعه .

وقوله (الرحمن على العرش استوى الخ) هذه هى المواضع السبعة التى اخبر فيها سبحانه باستوائه على العرش وكلها قطعية الثبوت ، لانها من كتاب الله ، فلا يملك الجهمى المعطل لها ردا ولا انكارا ، كما انها صريحة فى بابها لا تحتمل تأويلا ، فان لفظ استوى فى اللغة اذا عدى بعلى لا يمكن أن يفهم منه الا العلو والارتفاع ، ولهذا لم تخرج تفسيرات السلف لهذا اللفظ عن اربع عبارات ، ذكرها العلامة ابن القيم فى النونية حيث قال :

فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيهَا أَربَعٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلفَارِسِ الطَّعَّانِ

وَهِيَ اسْتَقَرَّ وَقَد عَلَا وَكَذَلِكَ ارْ ... تَفَعَ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ

وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ ... وَأَبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيبَانِي

يَختَارُ هَذَا القَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ ... أَدْرَى مِنَ الجَهْمِيِّ بِالقُرْآنِ

فاهل السنة والجماعة يؤمنون بما اخبر به سبحانه عن نفسه من انه مستو على عرشه بائن من خلقه بالكيفية التى يعلمها هو جل شأنه كما قال مالك وغيره (الاستواء معلوم والكيف مجهول) أما ما يشغب

وَقَالَ فِي سُورَةِ الم السَّجْدَةِ (اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

به أهل التعطيل من ايراد اللوازم الفاسدة على تقرير الاستواء فهى لا تلزمنا لاننا لا نقول بأن فوقيته على العرش كفوقية المخلوق على المخلـــوق .

وأما ما يحاولون به صرف هذه الآيات الصريحة عن ظواهرها بالتأويلات الفاسدة التى تدل على حيرتهم واضطرابهم كتفسيرهم استوى باستولى أو حملهم (على) على معنى الى واستوى بمعنى قصد الى آخر ما نقله عنهم حامل لواء التجهم والتعطيل زاهد الكوثرى فكلها تشغيب بالباطل وتغبير فى وجه الحق لا يغنى عنهم فى قليل ولا كثير وليت شعرى ماذا يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا ؟ أيريدون ان يقولوا ليس فى السماء رب يقصد ولا فوق العرش اله يعبد ؟ فاين يكون اذن ؟ ولعلهم يضحكون منا حين نسال عنه بأين ، ونسوا أن أكمل الخلق واعلمهم بربهم صلوات الله عليه وسلامه قد سأل عنه بأين حين قال للجارية أين الله ؟ ورضى جوابها حين قالت فى السماء ، وقد أجاب كذلك من ساله بأين كان ربنا قبل ان يخلق السموات والارض بأنه كان فى عماء ، الحديث ، ولم يرو عنه أنه زجر السائل ولا قال له انك غلطت فى السؤال .

ان قصارى ما يقوله المتحذلق منهم فى هذا الباب ان الله تعالى كان ولا مكان ، ثم خلق المكان وهو الآن على ما كان قبل خلق المكان

فماذا يعنى هذا المخرف بالمكان الذى كان الله ولم يكن ؟ هل يعنى به تلك الامكنة الوجودية التى هى داخل محيط العالم ؟ فهذه امكنة

وَقَولُهُ (يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ـ بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيهِ ـ إِلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُهُ ـ يَا هَامَانُ ابنِ لِي صَرحاً لَعَلِّي أَبلُغُ الأَسبَابَ ـ

حادثة ونحن لا نقول بوجود الله فى شىء منها اذ لا يحصره ولا يحيط به شىء من مخلوقاته .

واما اذا اراد بها المكان العدمى الذى هو خلاء محض لا وجود فيه ، فهذا لا يقال انه لم يكن ثم خلق ، اذا لا يتعلق به الخلق فانه أمر عدمى ـ فاذا قيل ان الله فى مكان بهذا المعنى كما دلت عليه الآيات والاحاديث فاى محذور فى هذا ؟

بل الحق ان يقال كان الله ولم يكن شيىء قبله ثم خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ثم استوى على العرش ، و (ثم) هنا للترتيب الزمانى لا لمجرد العطف .

وقوله (يا عيسى الخ) هذه الآيات جاءت مؤيدة لما دلت عليه الآيات السابقة من علوه تعالى وارتفاعه فوق العرش مباينا للخلق ، وناعية علي المعطلة جحودهم وانكارهم لذلك ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . ففى الآية الاولى ينادى الله رسوله وكلمته عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام بانه متوفيه ورافعه اليه حين دبر اليهود قتله ، والضمير فى قوله (الى) هو ضمير الرب جل شأنه لا يحتمل غير ذلك ، فتاويله بان المراد الى محل رحمتى او مكان ملائكتى الخ لا معنى له ومثل ذلك يقال ايضا فى قوله سبحانه ردا على ما ادعاه اليهود من قتل عيسى وصلبه (بل رفعه الله اليه) .

وقد اختلف فى المراد بالتوفى المذكور فى الآية فحمله بعضهم على الموت ، والاكثرون على ان المراد به النوم ، ولفظ التوفى يستعمل فيه قال تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) ؟

أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطلعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً .
وَقَولُهُ (أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخسِفَ بِكُمُ الأَرضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أم أَمِنتُم مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرسِلَ عَلَيكُم حَاصِباً فَستَعلَمُونَ كَيفَ نَذِيـــــــر) ـــ

ومنهم من زعم ان فى الكلام تقديما وتأخيرا وان التقدير انــى رافعك ومتوفيك ، اى مميتك بعد ذلك . والحق انه عليه السلام رفع حيا وانه سينزل قرب قيام الساعة لصحة الحديث بذلك .

واما قوله سبحانه (اليه يصعد الكلم الطيب) فهو صريح ايضا فى صعود اقوال العباد واعمالهم الى الله عز وجل يصعد بها الكــرام الكاتبون كل يوم عقب صلاة العصر وعقب صلاة الفجر كما جاء فى الحديث (فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ـــ وهو اعلم ـــ كيف تركتم عبادى؟ فيقولون ياربنا اتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون ؟

وأما قوله سبحانه حكاية عن فرعون (ياهامان ... الخ) فهو دليل على أن موسى عليه السلام أخبر فرعون الطاغية بأن الهه فى السماء فأراد ان يتلمس الاسباب للوصول اليه تمويها على قومه ، فامر وزيره هامان أن يبنى له الصرح ، ثم عقب على ذلك بقوله (وانى لاظنه) ـــ اى موسى ـــ كاذبا فيما اخبر به من كون الهه فى السماء . فمن اذا أشبه بفرعون واقرب اليه نسبا ؟ نحن ام هؤلاء المعطلة ؟ ان فرعون كذب موسى فى كون الهه فى السماء ، وهو نفس ما يقوله هؤلاء .

قوله (أأمنتم الخ) هاتان الآيتان فيهما التصريح بأن الله عــز وجل فى السماء ولا يجوز حمل ذلك على ان المراد به العذاب او الامر او الملك كما يفعل المعطلة لانه قال (من) وهى للعاقل ، وحملها على الملك اخراج اللفظ عن ظاهره بلا قرينة توجب ذلك .

ولا يجوز أن يفهم من قوله فى السماء أن السماء ظرف له سبحانه

(هُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ ، يَعلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرضِ وَمَا يَخرُجُ مِنهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُم أَينَمَا كُنتُم وَاللهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ) .

بل ان اريد بالسماء هذه المعروفة ، ففى بمعنى (على) كما فى قوله تعالى (لاصلبنكم فى جذوع النخل) وان اريد بها جهة العلو (ففي) على حقيقتها فانه سبحانه فى أعلى العلـــو .

قوله (هو الذى خلق السموات الخ) تضمنت هــذه الآيــة الكريمة اثبات صفة المعية له عز وجل وهى على نوعين :

١ ـــ معية عامة : شاملة لجميع المخلوقات ، فهو سبحانه مع كل شىء بعلمه وقدرته وقهره واحاطته ، لا يغيب عنه شىء ولا يعجزه ، وهذه هى المعية المذكورة فى الآية .

ففى هذه الآية يخبر عن نفسه سبحانه بأنه هو وحده الذى خلق السموات والارض يعنى أوجدهما على تقدير وترتيب سابق فى مدة ستة ايام ، ثم علا بعد ذلك وارتفع على عرشه لتدبير أمور خلقه ، وهو مع كونه فوق عرشه لا يغيب عنه شىء من العالمين العلوى والسفلى ، فهو يعلم ما يلج ، اى يدخل فى الارض ، وما يخرج منهـــا وما ينزل من السماء وما يعرج ، اى يصعد فيها ـــ ولا شك أن من كان علمه وقدرته محيطين بجميع الاشياء فهو مع كل شىء ، ولذلك قال (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

قوله (ما يكون من نجوى الخ) يثبت سبحانه شمول علمه واحاطته بجميع الاشياء ، وانه لا يخفى عليه نجوى المتناجين ، وانه شهيد على الاشياء كلها مطلع عليهـــا .

واضافة « نجوى » الى ثلاثة من اضافة الصفة الى الموصوف

وَقَولُهُ (مَا يَكُونُ مِن نَجوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُم وَلَا خَمسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُم وَلَا أَدنَى مِن ذَلِكَ وَلَا اكثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُم أَينَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَومَ القِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ـ لَا تَحزَن إِنَّ اللهَ مَعَنَا)

والتقدير ما يكون من ثلاثة نجوى ، اى متناجين .

وأما الآيات الباقية فهى فى اثبات المعية الخاصة التى هى معيته لرسله تعالى واوليائه بالنصر والتاييد والمحبة والتوفيق والالهام .

فقوله تعالى (لا تحزن ان الله معنا) حكاية عما قاله عليه الصلاة والسلام لابى بكر الصديق وهما فى الغار ، فقد احاط المشركون بفم الغار عندما خرجوا فى طلبه عليه السلام ، فلما رأى أبو بكر ذلك انزعج وقال : والله يا رسول الله لو نظر احدهم تحت قدمه لابصرنا ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ما حكاه الله عز وجل هنا (لا تحزن ان الله معنا) .

فالمراد بالمعية هنا معية النصر والعصمة من الاعداء .

وأما قوله (اننى معكما أسمع وأرى) فقد تقدم الكلام ؟ وانها خطاب لموسى وهارون عليهما السلام أن لا يخافا بطش فرعون بهما ، لان الله عز وجل معهما بنصره وتاييده .

وكذلك بقية الآيات يخبر الله فيها عن معيته للمتقين الذين يراقبون الله عز وجل فى امره ونهيه ويحفظون حدوده وللمحسنين الذين يلتزمون الاحسان فى كل شىء ، والاحسان فى كل شىء بحسبه فهو فى العبادة مثلا أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك كما جاء فى حديث جبريل عليه السلام .

وكذلك يخبر عن معيته للصابرين الذين يحبسون انفسهم على

وَقَولُهُ (إِنَّنِي مَعَكُمَا اسمَعُ وَأَرَى ــ إِنَّ اللهَ مَعَ الذِينَ اتَّقَوا وَالذِينَ هُم مُحسِنُونَ ــ وَاصبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِين ــ كَم مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِين) .

وَقَولُهُ (وَمَن أَصدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ــ وَمَن أَصدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً)

ما تكره ويتحملون المشاق والاذى فى سبيل الله وابتغاء وجهه صبرا على طاعة الله وصبرا عن معصيته وصبرا على قضائه .

تضمنت هذه الآيات اثبات صفة الكلام لله عز وجل .

وقد تنازع الناس حول هذه المسالة نزاعا كبيرا . فمنهم من جعل كلامه سبحانه مخلوقا منفصلا منه ، وقال ان معنى متكلم خالق للكلام وهم المعتزلة . ومنهم من جعله لازما لذاته ازلا وابدا لا يتعلق بمشيئته وقدرته ونفى عنه الحرف والصوت وقال انه معنى واحد فى الازل ، وهم الكلابية والاشعرية .

ومنهم من زعم انه حروف واصوات قديمة لازمة للذات ، وقال انها مقترنة فى الازل ، فهو سبحانه لا يتكلم بها شيئا بعد شيء وهم بعض الغلاة .

ومنهم من جعله حادثا قائما بذاته تعالى ومتعلقا بمشيئته وقدرته ولكن زعم ان له ابتداء فى ذاته وان الله لم يكن متكلما فى الازل ، وهم الكرامية . ويطول بنا القول لو اشتغلنا بمناقشة هذه الاقوال وافسادها على ان فسادها بين لكل ذى فهم سليم ونظر مستقيم .

وخلاصة مذهب اهل السنة والجماعة فى هذه المسالة ان الله تعالى لم يزل متكلما اذا شاء ، وان الكلام صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته ، فهو لم يزل ولا يزال متكلما اذا شاء وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقا منفصلا عنه كما تقول المعتزلة ولا لازما

، وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى بنَ مَرِيَمَ ــ وَتَمَّت كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدقاً وَعَدلاً)
وَقَولُهُ (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكلِيماً ــ مِنهُم مَن كَلَّمَ اللهُ ــ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ــ وَنَادَينَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيمَنِ وَقَرَّبنَاهُ نَجِيّاً)
وَقَولُهُ (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائتِ القَــومَ الظَّالِمِين ــ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلكُمَا الشَّجَرَةِ) .

اذاته لزوم الحياة لها كما تقول الاشاعرة بل هو تابع لمشيئته وقدرته .

والله سبحانه نادى موسى بصوت ونادى آدم وحواء بصوت ، وينادي عباده يوم القيامة بصوت ويتكلم بالوحي بصوت ، ولكن الحروف والاصوات التى تكلم الله بها صفة له غير مخلوقة ولا تشبه اصوات المخلوقين وحروفهم ، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده ، فان الله لا يماثل المخلوقين فى شىء من صفاته .

والآيتان الاوليان هنا وهما من سورة النساء تنفيان ان يكون احد اصدق حديثا وقولا من الله عز وجل ، بل هو سبحانه اصدق من كل احد فى كل ما يخبر به ، وذلك لان علمه بالحقائق المخبر عنها اشمل واضبط ، فهو يعلمها على ما هى به من كل وجه ، وعلم غيره ليس كذلك .

واما قوله (واذ قال الله يا عيسى الخ) فهو حكاية لما سيكون يوم القيامة من سؤال الله لرسوله وكلمته عيسى عما نسبه اليه الذين الهوه وامه من النصارى من انه هو الذى امرهم بأن يتخذوه وامه الهين من دون الله . وهذا السؤال لاظهار براءة عيسى عليه السلام وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الضالين الاغبياء .

واما قوله (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) فالمراد صدقا فى اخباره وعدلا فى احكامه لان كلامه تعالى اما اخبار وهى كلها فى غاية الصدق ، واما امر ونهى وكلها فى غاية العدل الذى لا جور فيه

وَقولُهُ (وَيَومَ يُنَادِيهِم فَيقُولُ مَاذَا أَجَبتُمُ المُرسَلِينَ ــ وَإنْ أَحَدٌ مِــنَ المُشرِكِينَ استَجَارَكَ فَأَجِرهُ حَتَّى يَسمَعَ كَلامَ اللهِ ــ وَقد كَانَ فَرِيقٌ مِنهُم يَسمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُم يَعلَمُونَ ــ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُل لَن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُم قَالَ اللهُ مِن قَبلُ ــ وَاتلُ مَا أُوحِيَ إِلَيكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) .

لابتنائها على الحكمة والرحمة ، والمراد بالكلمة هنا الكلمات لانهـــا اضيفت الى معرفة فتفيد معنى الجمع كما فى قولنا رحمة الله ونعمـــة الله .

واما قوله (وكلم الله موسى تكليما) وما بعدها من الآيات التى تدل على أن الله قد نادى موسى وكلمه تكليما ، وناجاه حقيقة من وراء حجاب وبلا واسطة ملك ، فهى ترد على الاشاعرة الذين يجعلون الكلام معنى قائما بالنفس بلا حرف ولا صوت ، فيقال لهم كيــف سمع موسى هذا الكلام النفسى ؟ فان قالوا القى الله فى قلبه علما ضروريا بالمعانى التى يريد ان يكلمه بها لم يكن هناك خصوصية لموسى فى ذلك ، وان قالوا ان الله خلق كلاما فى الشجرة او فى الهواء ونحــو ذلك لزم ان تكون الشجرة هى التى قالت لموسى (انى انا ربك) .

وكذلك ترد عليهم هذه الآيات فى جعلهم الكلام معنى واحدا فى الازل لا يحدث منه فى ذاته شىء ، فان الله يقول (ولما جاء موســـى لميقاتنا وكلمه ربه) فهـــى تفيد حدوث الكلام عند مجىء موســـى للميقات ، ويقول (وناديناه من جانب الطور الايمن) فهذا يـــدل على حدوث النداء عند جانب الطور الايمن ، والنداء لا يكون الا صوتا مسموعا . وكذلك قوله تعالى فى شان آدم وحواء (وناداهما ربهما) الآية ، فان هذا النداء لم يكن الا بعد الوقوع فى الخطيئة فهو حادث قطعا . وكذلك قوله تعالى (ويوم يناديهم الخ) فـــان

وَقَولُهُ (إِنَّ هَذَا القُرآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسرَائيلَ أَكثَرَ الذِي هُمْ فِيهِ يَختَلِفُون . وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلنَاهُ مُبَارَك — لَو أَنزَلنَا هَذَا القُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِن خَشيَةِ اللهِ — وَإِذا بَدَّلنَا آيةً مَكَانَ آيةٍ وَاللهُ اعلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّما انتَ مُفتَرٍ بَل اكثَرُهُم لاَ يَعلَمُونَ .

هذا النداء والقول سيكون يوم القيامة ، وفى الحديث « ما من عبد الا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه ترجمان » .

قوله (وان احد من المشركين الخ) هذه الآيات الكريمة تفيد ان القرآن المتلو المسموع المكتوب بين دفتى المصحف هو كلام الله على الحقيقة وليس فقط عبارة أو حكاية عن كلام الله كما يقوله الاشعرية ، واضافته الى الله عز وجل تدل على انه صفة له قائمة به وليست كاضافة البيت او الناقة ، فانها اضافة معنى الى الذات تدل على ثبوت المعنى لتلك الذات بخلاف اضافة البيت أو الناقة فانها اضافة اعيان — وهذا يرد على المعتزلة فى قولهم انه مخلوق منفصل عن الله ، ودلت هذه الآيات ايضا على ان القرآن منزل من عند الله بمعنى أن الله تكلم به بصوت سمعه جبريل عليه السلام ، فنزل به واداه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سمعه من الرب جل شانه .

وخلاصة القول فى ذلك أن القرآن العربى كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ واليه يعود . والله تكلم به على الحقيقة ، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره واذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه فى المصاحف لم يخرج ذلك عن ان يكون كلام الله ، فان الكلام انما يضاف حقيقة الى من قاله مبتدئا لا الى من بلغه مؤديا والله تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه ليس شىء منه كلاما لغيره لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما والله تكلم به ايضا بصوت نفسه ، فاذا قراه العباد قراوه بصوت

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) وَقَوْلُهُ (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ــ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ــ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

انفسهم ، فاذا قال القارىء مثلا (الحمد لله رب العالمين) كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه وكان هو قراه بصوت نفسه لا بصوت الله . وكما ان القرآن كلام فكذلك هو كتابه لانه كتبه فى اللوح المحفوظ ولانه مكتوب فى المصاحف قال تعالى (انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) وقال (انه لقرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال (فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة) .

والقرآن فى الاصل مصدر كالقراءة ، كما فى قوله تعالى (ان قرآن الفجر كان مشهودا) .

ويراد به هنا ان يكون علما على هذا المنزل من عند الله المكتوب بين دفتى المصحف المتعبد بتلاوته المتحدى باقصر سورة منه .

وقوله (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) يدل على ان ابتداء نزوله من عند الله عز وجل ، وأن روح القدس جبريل عليه السلام تلقاه عن الله سبحانه بالكيفية التى يعلمها .

قوله (وجوه يومئذ ناضرة الخ) هذه الآيات تثبت رؤية المؤمنين لله عز وجل يوم القيامة فى الجنة .

وقد نفاها المعتزلة بناء على نفيهم الجهة عن الله لان المرئى يجب ان يكون فى جهة من الرائى ، وما دامت الجهة مستحيلة وهى شرط فى الرؤية فالرؤية كذلك مستحيلة ، واحتجوا من النقل بقوله تعالى (لا تدركه الابصار) وقوله لموسى عليه السلام حين سأله الرؤية

وَقولُهُ (لَهُم مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَينَا مَزِيدٌ) .

وَهَذَا البَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ . مَن تَدَبَّرَ القُرآنَ طَالِباً لِلهُدَى مِنهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ .

(لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) .

واما الاشاعرة فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة يثبتون الرؤية ، ولذلك حاروا فى تفسير تلك الرؤية ، فمنهم من قال يرونه من جميع الجهات ومنهم من جعلها رؤية بالبصيرة لا بالبصر ، وقال المقصود زيادة الانكشاف والتجلى حتى كأنها رؤية عين .

وهذه الآيات التى اوردها المؤلف حجة على المعتزلة فى نفيهم الرؤية . فان الآية الاولى عَدَّى النظر فيها بالى فيكون بمعنى الابصار يقال نظرت اليه وابصرته بمعنى ومتعلق النظر هو الرب جل شأنه .

واما ما يتكلفه المعتزلة من جعلهم (ناظرة) بمعنى منتظرة و (الى) بمعنى النعمة ، والتقدير « ثواب ربها منتظرة » فهو تأويل مضحك .

واما الآية الثانية فتفيد ان اهل الجنة وهم على أرائكهم ، يعنى أسرتهم — جمع اريكة — ينظرون الى ربهم .

واما الآيتان الاخيرتان فقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم تفسير الزيادة بالنظر الى وجه الله عز وجل ويشهد لذلك ايضا قوله تعالى فى حق الكفار (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فدل حجب هؤلاء على ان اولياءه يرونه ، واحاديث الرؤية متواترة فى المعنى عند اهل العلم بالحديث لا ينكرها الا ملحد زنديق .

واما ما احتج به المعتزلة من قوله تعالى (لا تدركه الابصار) فلا حجة لهم فيه ، لان نفى الادراك لا يستلزم نفى الرؤية ، فالمراد

ان الابصار تراه ولكن لا تحيط به رؤية كما أن العقول تعلمه ولكـن لا تحيط به علما ، لان الادراك هو الرؤية على جهة الاحاطة فهو رؤية خاصة ونفى الخاص لا يستلزم نفى مطلق الرؤية وكذلك استدلالهم على نفى الرؤية بقوله تعالى لموسى عليه السلام (لن ترانى) لا يصلح دليلا بل الآية تدل على الرؤية من وجوه كثيرة منها :

١ ـ وقوع السؤال من موسى وهو رسول الله وكليمـه ، وهو أعلم بما يستحيل فى حق الله من هؤلاء المعتزلة ، فلو كانت الرؤية ممتنعة لما طلبهـا .

٢ ـ ان الله عز وجل علق الرؤية على استقرار الجبـل حال التجلى وهو ممكن والمعلق على الممكن ممكن .

٣ ـ ان الله تجلى للجبل بالفعل وهو جماد ، فلا يمتنع اذا أن يتجلى لاهل محبته واصفيائـه .

واما قولهم ان (لن) لتأبيد النفى وانها تدل على عدم وقوع الرؤية اصلا فهو كذب على اللغة ، فقد قال تعالى حكاية عن الكفار (ولن يتمنوه ابدا) ثم قال (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) فأخبـر عن عدم تمنيهم للموت (بلن) ثم أخبر عن تمنيهم له وهم فى النار .

واذا فمعنى قوله (لن ترانى) لن تستطيع رؤيتى فى الدنيا لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته سبحانه ، ولو كانت الرؤيـة ممتنعة لذاتها لقال انى لا أرى أو لا يجوز رؤيتى أو لست بمرئى ونحو ذلك والله أعلم .

(مباحث عامة حول آيات الصفات)

ان الناظر فى آيات الصفات التى ساقها المؤلف ـ رحمه الله ـ

يستطيع أن يستنبط منها قواعد وأصولا هامة يجب الرجوع اليها في هذا الباب .

الاصل الاول : اتفق السلف على أنه يجب الايمان بجميع الاسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما ينشأ عنها من الافعال ، مثال ذلك (القدرة) مثلا يجب الايمان بأنه سبحانه على كل شيء قدير . والايمان بكمال قدرته ، والايمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات ، وهكذا بقية الاسماء الحسنى على هذا النمط . وعلى هذا فما ورد في هذه الآيات التي ساقها المصنف من الاسماء الحسنى فانها داخلة في الايمان بالاسم ، وما فيها من ذكر الصفات مثل عزة الله وقدرته وعلمه وحكمته وارادته ومشيئته فانها داخلة في الايمان بالصفات وما فيها من ذكر الافعال المطلقة والمقيدة ، مثل يعلم كذا ويحكم ما يريد ، ويرى ويسمع ، وينادي ويناجي ، وكلم ويكلم ، فانها داخلة في الايمان بالافعال .

الاصل الثاني : دلّت هذه النصوص القرآنية على أن صفات الباري قسمان :

١ ـ صفات ذاتية لا تنفك عنها الذات ، بل هي لازمة لها ازلا وابدا ولا تتعلق بها . مشيئته تعالى وقدرته ، وذلك كصفات الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة والملك والعظمة والكبرياء والمجد والجلال الـخ .

٢ ـ صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن وتحدث بمشيئته وقدرته ، آحاد تلك الصفات من الافعال وان كان هو لم يزل موصوفا بها بمعنى أن نوعها قديم وافرادها حادثة ، فهو سبحانه لم يزل فعالا لما يريد ، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الامور وافعاله تقع شيئا فشيئا تبعا لحكمته وارادته فعلى المؤمن الايمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الافعال المتعلقة

بذاته كالاستواء على العرش والمجىء والاتيان والنزول الى السماء الدنيا ، والضحك والرضى والغضب والكراهية والمحبة المتعلقة بخلقه كالخلق والرزق والاحياء والاماتة وأنواع التدبير المختلفة .

الاصل الثالث : اثبات تفرد الرب جل شأنه بكل صفة كمال وانه ليس له شريك أو مثيل فى شىء منها

وما ورد فى الآيات السابقة من اثبات المثل الاعلى له وحده ونفى الند والمثل والكفء والسمى والشريك عنه يدل على ذلك كما يدل على انه منزه عن كل نقص وعيب وآفة .

الاصل الرابع : اثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات ، لا فرق بين الذاتية منها كالعلم والقدرة والارادة والحياة والسمع والبصر ونحوها ، والفعلية كالرضا والمحبة والغضب والكراهة ، وكذلك لا فرق بين اثبات الوجه واليدين ونحوهما ، وبين الاستواء على العرش والنزول ، فكلها مما اتفق السلف على اثباته بلا تأويل ولا تعطيل ، وبلا تشبيه وتمثيل .

والمخالف فى هذا الاصل فريقان :

١ ــ الجهمية : ينفون الاسماء والصفات جميعا .

٢ ــ المعتزلة : فانهم ينفون جميع الصفات ويثبتون الاسماء والاحكام ، فيقولون عليم بلا علم وقدير بلا قدرة وحى بلا حياة الخ . وهذا القول فى غاية الفساد ، فان اثبات موصوف بلا صفة واثبات ما للصفة للذات المجردة محال فى العقل كما هو باطل فى الشرع .

اما الاشعرية ومن تبعهم فانهم يوافقون أهل السنة فى اثبات سبع صفات يسمونها صفات المعانى ويدعون ثبوتها بالعقل وهى

(فَـصْـــلٌ)

ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، فَالسُّنَّةُ تُفَسِّـــرُ القُرآنَ وَتُبَيِّنُهُ وَتَدُلُّ عَلَيهِ وَتُعَبِّرُ عَنهُ .

الحياة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكــلام ، ولكنهم وافقوا المعتزلة فى نفى ما عدا هذه السبع من الصفات الخبرية التى صح بهـــا الخبـــر .

والكل محجوجون بالكتاب والسنة واجماع الصحابة والقرون المفضلة على الاثبات العـــام .

قوله (ثم فى سنة رسول الله) عطف على قوله فيما تقدم ، وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف الله به نفسه فى سورة الاخلاص الخ يعنى ودخل فيها ما وصف به الرسول صلى الله عليه وسلم ربه فيما وردت به السنة الصحيحـــة .

والسنة هى الاصل الثانى الذى يجب الرجوع اليه ، والتعويل عليه بعد كتاب الله عز وجل قال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) والمراد بالحكمة السنة ، وقال (ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال آمرا لنساء نبيه (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن مـــن آيات الله والحكمة) وقال سبحانه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال صلوات الله وسلامه عليه وآله (الا انى أوتيت القرآن ومثله معه) وحكم السنة حكم القرآن فى ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل ، فان السنة توضيح للقرآن وبيان للمراد منه تفصل مجمله وتقيد مطلقه وتخصص عمومه ، كما قال تعالى (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) .

واهل البدع والاهواء بازاء السنة الصحيحة فريقـــان :

وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهلُ المَعرِفَةِ بِالقَبُولِ ، وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ .

فَمِنْ ذَلِكَ مِثلُ قَولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا كُلَّ لَيلَةٍ حِينَ يَبقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرِ ، فَيَقُولُ مَن يَدعُونِي فَأَستَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسأَلُنِي فَأُعطِيهُ ؟ مَنْ يَستَغفِرُنِي فَأَغفِر لَهُ ؟ » مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

---

١ – فريق لا يتورع عن ردها وانكارها اذا وردت بما يخالف مذهبه بدعوى انها احاديث آحاد لا تفيد الا الظن ، والواجب فى باب الاعتقاد هو اليقين ، وهؤلاء هم المعتزلة والفلاسفة .

٢ – وفريق يثبتها ويعتقد بصحة النقل ولكنه يشتغل بتأويلها كما يشتغل بتأويل آيات الكتاب حتى يخرجها عن معانيها الظاهرة الى ما يريده من معان بالالحاد والتحريف ، وهؤلاء هم متأخرو الاشعرية واكثرهم توسعا فى هذا الباب الغزالى والرازى .

قوله (وما وصف الرسول به الخ) يعنى انه كما وجب الايمان بكل ما وصف الله به نفسه فى كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، كذلك يجب الايمان بكل ما وصفه به أعلم الخلق بربه ومما يجب له وهو رسوله الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه وآله .

قوله (كذلك) اى ايمانا مثل ذلك الايمان خاليا من التحريف والتعطيل ومن التكييف والتمثيل بل اثبات لها على الوجه اللائق بعظمة الرب جل شأنه .

قوله (فمن ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم الخ) الكلام على هذا الحديث من جهتين (الاولى) صحته من جهة النقل وقد ذكر المؤلف رحمه الله انه متفق عليه . ويقول الذهبى فى كتابه « العلو للعلى الغفار » ان احاديث النزول متواترة تفيد القطع ، وعلى هذا فلا مجال

لانكــار او جحــود .

(الثانية) ما يفيده هذا الحديث وهو اخباره صلى الله عليه وسلم بنزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة الخ . ومعنى هذا ان النزول صفة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته ، فهو لا يماثل نزول الخلق كما أن استواءه لا يماثل استواء الخلق .

يقول شيخ الاسلام رحمه الله فى تفسير ســورة الاخلاص :

« فالرب سبحانه اذا وصفه رسوله بانه ينزل الى سماء الدنيا كل ليلة وانه يدنو عشية عرفة الى الحجاج وانه كلم موسى فى الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة وانه استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها لم يلزم من ذلك ان تكون هذه الافعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الاعيــان المشهودة حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر .

فاهل السنة والجماعة يؤمنون بالنزول صفة حقيقية لله عز وجل على الكيفية التى يشاء فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التى ثبتت فى الكتاب والسنة ، ويقفون عند ذلك فلا يكيفون ولا يمثلون ولا ينفون ولا يعطلون ، ويقولون ان الرسول أخبرنا أنه ينزل ولكنه لم يخبرنا كيف ينزل ، وقد علمنا أنه فعال لما يريد ، وانه على كل شىء قــديــــر .

ولهذا ترى خواص المؤمنين يتعرضون فى هذا الوقت الجليل لالطاف ربهم ومواهبه ، فيقومون لعبوديته خاضعين خاشعين داعين متضرعين يرجون منه حصول مطالبهم التى وعدهم بها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

وَقولُهُ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوبَةِ عَبدِهِ الْمُؤْمِنِ التَّائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ » الحديثُ متَّفقٌ عليهِ .

قوله (لله اشد فرحا الخ) تتمة هذا الحديث كما فى البخارى وغيره « لله اشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل بأرض فلاة دوية مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فنزل عنها فنام وراحلته عند راسه فاستيقظ وقد ذهبت ، فذهب فى طلبها فلم يقدر عليها حتى ادركه الموت من العطش فقال والله لارجعن فلاموتن حيث كان رحلى فرجع فنام فاستيقظ فاذا راحلته عند راسه فقال اللهم انت عبدى وانا ربك ، اخطأ من شدة الفرح » .

وفى هذا الحديث اثبات صفة الفرح لله عز وجل والكلام فيه كالكلام فى غيره من الصفات انه صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به ، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته ، فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح عندما يحدث عبده التوبة والانابة اليه وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب وقبوله توبته . واذا كان الفرح فى المخلوق على أنواع فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب وقد يكون فرح اشر وبطر ، فالله عز وجل منزه عن ذلك كله ، ففرحه لا يشبه فرح احد من خلقه لا فى ذاته ولا فى أسبابه ولا فى غاياته ، فسببه كمال رحمته واحسانه التى يجب من عباده أن يتعرضوا لها ، وغايته اتمام نعمته على التائبين المنيبين .

وأما تفسير الفرح بلازمه وهو الرضى وتفسير الرضا بارادة الثواب ، فكل ذلك نفى وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه ، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم حيث توهموا أن هذه المعانى تكون فيه كما هى فى المخلوق — تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم .

وَقَولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « يَضحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَينِ يَقتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ كِلَاهُمَا يَدخُلُ الجَنَّةَ » مُتفقٌ عَليهِ .

وَقَولُهُ « عَجِبَ رَبُّنَا مِن قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُربِ خَيرِهِ ، يَنظُرُ إِلَيكُم أَزِلِينَ قَنِطِينَ فَيَظَلُّ يَضحَكُ يَعلَمُ أَنَّ فَرَجَكُم قَرِيبٌ » حَدِيثٌ حَسَنٌ .

قوله (يضحك الله الى رجلين الخ .) : يثبت أهل السنة والجماعة الضحك لله عز وجل كما افاده هذا الحديث وغيره على المعنى الذى يليق به سبحانه والذى لا يشبهه ضحك المخلوقين عندما يستخفهم الفرح أو يستفزهم الطرب ، بل هو معنى يحدث فى ذاته عند وجود مقتضيه ، وانما يحدث بمشيئته وحكمته ، فان الضحك انما ينشأ فى المخلوق عند ادراكه لامر عجيب يخرج عن نظائره ، وهذه الحالة المذكورة فى هذا الحديث ، كذلك فان تسليط الكافر على قتل المسلم مدعاة فى بادىء الراى لسخط الله على هذا الكافر وخذلانه ومعاقبته فى الدنيا والآخرة ، فاذا من الله على هذا الكافر بعد ذلك بالتوبة وهداه للدخول فى الاسلام وقاتل فى سبيل الله حتى يستشهد فيدخل الجنة كان ذلك من الامور العجيبة حقا .

وهذا من كمال رحمته واحسانه وسعة فضله على عباده سبحانه ، فان المسلم يقاتل فى سبيل الله ويقتله الكافر ، فيكرم الله المسلم بالشهادة ، ثم يمن على ذلك القاتل فيهديه للاسلام والاستشهاد فى سبيله فيدخلان الجنة جميعا .

وأما تأويل ضحكه سبحانه بالرضا أو القبول او ان الشىء حل عنده بمحل ما يضحك منه ، وليس هناك فى الحقيقة ضحك فهو نفى لما أثبته رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه فلا يلتفت اليه .

قوله (عجب ربنا الخ) هذا الحديث يثبت لله عز وجل صفة العجب وفى معناه قوله عليه الصلاة والسلام « عجب ربك من شاب

ليس له صبوة » وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه « بل عجبتُ ويسخرون » بضم التاء على أنها ضمير الرب جل شأنه .

وليس عجبه سبحانه ناشئا عن خفاء فى الاسباب او جهل بحقائق الامور كما هو الحال فى عجب المخلوقين بل هو معنى يحدث له سبحانه على مقتضى مشيئته وحكمته وعند وجود مقتضيه ، وهو الشىء الذى يستحق أن يتعجب منه .

وهذا العجب الذى وصف به الرسول ربه هنا من آثار رحمته وهو من كماله تعالى ، فاذا تأخر الغيث عن العباد مع فقرهم وشدة حاجتهم واستولى عليهم اليأس والقنوط وصار نظرهم قاصرا على الاسباب الظاهرة ، وحسبوا أن لا يكون وراءها فرج من القريب المجيب فيعجب الله منهم .

وهذا محل عجيب حقا اذ كيف يقنطون ورحمته وسعت كل شىء والاسباب لحصولها قد توفرت ، فان حاجة العباد وضرورتهم من اسباب رحمته ، وكذا الدعاء بحصول الغيث والرجاء فى الله من أسبابها وقد جرت عادته سبحانه فى خلقه أن الفرج مع الكرب وأن اليسر مع العسر وأن الشدة لا تدوم ، فاذا انضم الى ذلك قوة التجاء وطمع فى فضل الله ، وتضرع اليه ودعاء ، فتح الله عليهم من خزائن رحمته ما لا يخطر على البال .

والقنوط مصدر قنط يقنط وهو اليأس من رحمة الله ، قال تعالى (ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) .

قوله : (وقرب خيره) أى فضله ورحمته وقد روى (غيره) والغير اسم من قولك غير الشىء فتغير ، وفى حديث الاستسقاء « من يكفر بالله يلق الغير » اى تغير الحال وانتقالها من الصلاح الى الفساد .

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ هَلْ مِن مَزِيدٍ ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ) وَفِي رِوَايَةٍ « عَلَيهَا قَدَمَهُ فَيَنزَوِي بَعضُهَا إِلَى بَعضٍ فَتَقُولُ قَط قَط » مُتفقٌ عَليهِ .

وَقَولُهُ : « يَقُولُ تَعَالَى يَا آدَمُ فَيَقُولُ لَبَّيكَ وَسَعدَيْكَ فَيُنَادَى بِصَوتٍ إِنَّ اللهَ يَأمُرُكَ أَنْ تُخرِجَ مِن ذُرِّيَتِكَ بَعثاً إِلَى النَّارِ » مُتفقٌ عَليــهِ .

وَقَولُهُ « مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيسَ بَينَهُ وَبَينَهُ تَرجُمَانٌ » .

قوله (ازلين قنطين) حالان من الضمير المجرور فى اليكم ، وأَزِلِين جميع أَزِل اسم فاعل من الأَزْل بمعنى الشدة والضيق ، يقال أَزِلَ الرجل يَأْزَلُ أَزَلاً من باب فَرِحَ اى صار فى ضيق وجدب .

قوله (لا تزال جهنم الخ) فى هذا الحديث اثبات الرجل والقدم لله عز وجل ، وهذه الصفة تجرى مجرى بقية الصفات فنثبت لله على الوجه اللائق بعظمته سبحانه . والحكمة فى وضع رجله سبحانه فى النار انه قد وعد ان يملاها كما فى قوله تعالى (لاملأن جهنــم من الجنة والناس اجمعين) .

ولما كان مقتضى رحمته وعدله أن لا يعذب أحدا بغير ذنب ، وكانت النار فى غاية العمق والسعة ، حقق وعده تعالى فوضع فيهـــا قدمه ، فحينئذ يتلاقى طرفاها ولا يبقى فيها فضل عن اهلها .

واما الجنة فانه يبقى فيها فضل عن اهلها مع كثرة ما اعطاهم وأوسع لهم فينشىء الله لها خلقا آخرين كما ثبت بذلك الحديث .

قوله (يقول تعالى يـــا آدم الخ) فى هذين الحديثين اثبات القول والنداء والتكليم لله عز وجل ، وقد سبق ان بينا مذهب اهل السنة والجماعة فى ذلك وانهم يؤمنون بأن هذه صفات افعال له سبحانه تابعة لمشيئته وحكمته ، فهو قال ويقول ، ونادى وينادى ، وكلــم

وَقَولُه فِي رقيَةِ المَرِيضِ « رَبُّنا الله الذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسمُكَ ، أَمرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرضِ كَمَا رَحمَتُكَ فِي السَّمَاءِ ، اجعَل رَحمَتَكَ فِي الأَرضِ ، اغفِرْ لَنَا حوْبَنَا وَخَطَايَانَا ، أنتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ أَنزِلْ رَحمَةً مِن رَحمَتِكَ وَشِفَاءً مِن شفَائكَ عَلَى هَذَا الوَجَعِ فَيَبرَأ » حَديثٌ حَسَنٌ رواه ابو دَاوُد وَغَيرُه ــ وَقَولُه « أَلاَ تَأمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَن فِي السَّمَاءِ » حَديثٌ صَحِيـــــحٌ .

ويتكلم ، وأن قوله ونداءه وتكليمه انما يكون بحروف واصـــوات يسمعها من يناديه ويكلمه ، وفى هذا رد على الاشاعرة فى قولهم ان كلامه قديم وانه بلا حرف ولا صوت .

وقد دل الحديث الثانى على انه سبحانه سيكلم جميع عباده بلا واسطة ، وهذا تكليم عام ، لانه تكليم محاسبة فهو يشمل المؤمـــن والكافر والبر والفاجر ، ولا ينافيه قوله تعالى (ولا يكلمهم الله) لان المنفى هنا هو التكليـــم بما يسر المكلـــم ، وهو تكليم خـــاص ويقابله تكليمه سبحانه لاهل الجنة تكليم محبة ورضوان واحسان .

قوله (ربنا الله الذى فى السماء الخ) الحديث الاول صريح فى علوه تعالى وفوقيته فهو كقوله تعالى (أأمنتم من فى السماء) وقد سبق أن قلنا ان هذه النصوص ليس المراد منها أن السمـــاء ظرف حاو له سبحانه ، بل (فى) اما أن تكون بمعنى على كما قاله كثير من أهل العلم واللغـــة .

و (فى) تكون بمعنى على فى مواضع كثيرة مثل قوله تعالـــى (لاصلبنكم فى جذوع النخل) واما أن يكون المراد من السماء جهـــة العلو ، وعلى الوجهين فهى نص فى علوه تعالى على خلقه .

وفى حديث الرقية المذكور توسل الى الله عز وجل بالثناء عليـــه بربوبيته والاهيته وتقديس اسمه وعلوه على خلقه وعموم امـــره

وَقَولُهُ « وَالعَرشُ فَوقَ المَاءِ وَاللهُ فَوقَ العَرشِ ، وَهُوَ يَعلَمُ مَا أَنتُم عَلَيهِ » حَديثٌ حَسَنٌ رَواهُ ابو دَاوُد وَغَيرُه .

وَقَولُهُ لِلجَارِيَةِ « أَينَ اللهُ ؟ قَالَت فِي السَّمَاءِ ، قَالَ مَن اَنَا ؟ قَالَت أَنتَ رَسُولُ اللهِ ، قَالَ اعتِقهَا فَإِنَّهَا مُؤمِنَةٌ » رَوَاهُ مُسلِم .

الشرعى وامره القدرى ، ثم توسل اليه برحمته التى شملت اهل سمواته جميعا ان يجعل لاهل الارض نصيبا منها ، ثم توسل اليه بسؤال مغفرة الحوب وهو الذنب العظيم ، ثم الخطايا التى هى دونه ، ثم توسل اليه بربوبيته الخاصة للطيبين من عباده وهم الانبياء واتباعهم التى كان من آثارها أن غمرهم بنعم الدين والدنيا الظاهرة والباطنة .

فهذه الوسائل المتنوعة الى الله لا يكاد يرد دعاء من توسل بها ، ولهذا دعا الله بعدها بالشفاء الذى هو شفاء الله الذى لا يدع مرضا الا ازاله ولا تعلق فيه لغير الله .

فهل يفقه هذا عباد القبور من المتوسلين بالذوات والاشخاص والحق والجاه والحرمة ونحو ذلك .

واما الحديث الثانى فقد تضمن شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم بالايمان للجارية التى اعترفت بعلوه تعالى على خلقه ، فدل ذلك على أن وصف العلو من اعظم اوصاف البارى جل شأنه حيث خصه بالسؤال عنه دون بقية الاوصاف ، ودل أيضا على أن الايمان بعلوه المطلق من كل وجه هو من اعظم اصول الايمان ، فمن انكره فقد حرم الايمان الصحيح .

والعجب من هؤلاء الحمقى من المعطلة النفاة زعمهم أنهم أعلم بالله من رسوله ، فينفون عنه الاين بعدما وقع هذا اللفظ بعينه من الرسول مرة سائلا غيره ، كما فى هذا الحديث « ومرة مجيبا

وَقَوْلُهُ « أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَن تَعلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيثُمَا كُنتَ » حَدِيثٌ حَسَن ــ وَقَوْلُهُ « إِذَا قَامَ أَحَدُكُم إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يَبصُقَنَّ قِبَلَ وَجهِهِ وَلَا عَن يَمِينِهِ ، فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجهِهِ ، وَلَكِن عَن يَسَارِهِ أَو تَحتَ قَدَمِهِ » مُتفقٌ عَلَيهِ .

لمن سأله بقوله اين كان ربنا » .

واما قوله (والعرش فوق الماء الخ) ففيه الجمع بين الايمان بعلوه تعالى على عرشه وباحاطة علمه بالموجودات كلها ، فسبحان من هو عال فى دنوه ، قريب فى علوه .

قوله (افضل الايمان ان تعلم الخ) دلالة على ان افضل الايمان هو مقام الاحسان والمراقبة ، وهو ان يعبد العبد ربه كأنه يراه ويشاهده ، ويعلم أن الله معه حيث كان ، فلا يتكلم ولا يفعل ولا يخوض فى امر ما الا والله رقيب مطلع عليه ، قال تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه) .

ولا شك ان هذه المعية اذا استحضرها العبد فى كل أحواله فانه يستحى من الله عز وجل أن يراه حيث نهاه أو ان يفتقده حيث أمره فتكون عونا له على اجتناب ما حرم الله والمسارعة الى فعل ما امر به من الطاعات على وجه الكمال ظاهرا وباطنا ، ولا سيما اذا دخل فى الصلاة التى هى اعظم صلة ومناجاة بين العبد وربه ، فيخشع قلبه ويستحضر عظمة الله وجلاله ، فتقل حركاته ولا يسىء الادب مع ربه بالبصق امامه أو عن يمينه .

قوله (اذا قام احدكم الى الصلاة الخ) دل على أن الله عز وجل يكون قبل وجه المصلى .

قال شيخ الاسلام فى العقيدة الحموية : ان الحديث حق على

وَقَولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبعِ وَالأَرضِ وَرَبَّ العَرشِ العَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيءٍ ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى ، مُنَزِّلَ التَّورَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرآنِ ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ نَفسِي وَمِن شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، أَنتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبلَكَ شَيءٌ ، وَأَنتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعدَكَ شَيءٌ ، وَأَنتَ الظَّاهِرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ ، وَأَنتَ البَاطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيءٌ ، اقضِ عَنِّي الدَّينَ وَأَغنِنِي مِنَ الفَقرِ » رِوَايَةُ مُسلِم .

قَولُهُ (اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ الخ) تَضَمَّنَ الحَدِيثُ إِثبَاتَ أَسمَائِهِ

وَقَولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصوَاتَهُم بِالذِّكرِ : « أَيُّهَا النَّاسُ اربَعُوا عَلَى أَنفُسِكُم فَإِنَّكُم لاَ تَدعُونَ أَصَمَّ ولا غَائِباً . إِنَّمَا تَدعُونَ سَمِيعاً بَصِيراً قَرِيباً ، إِنَّ الذي تَدعُونَهُ أَقرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِن عُنُقِ رَاحِلَتِهِ » مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

ظاهره وهو سبحانه فوق العرش ، وهو قبل وجه المصلى ، بل هذا الوصف يثبت للمخلوق ، فان الانسان لو انه يناجى السماء أو يناجى الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه ، وكانت ايضا قبل وجهه .

قوله (اللهم رب السموات ... الخ) تضمن الحديث اثبات أسمائه تعالى الاول والآخر والظاهر والباطن ، وهى من الاسماء الحسنى ، وقد فسرها النبى صلى الله عليه وسلم بما لا يدع مجالا لقائل ، فهو أعلم الخلق جميعا باسماء ربه وبالمعانى التى تدل عليها ، فلا يصح أن يلتفت الى قول غيره أيا كان .

وفى الحديث ايضا يعلمنا نبينا صلوات الله وسلامه عليه وآله كيف نثنى على ربنا عز وجل قبل السؤال ، فهو يثنى عليه بربوبيته العامة التى انتظمت كل شىء ، ثم بربوبيته الخاصة الممثلة فى انزاله هذه الكتب الثلاثة تحمل الهدى والنور الى عباده ، ثم يعوذ ويعتصم به سبحانه من شر نفسه ومن شر كل ذى شر من خلقه ، ثم

« إِنَّكُمْ سَتَرَونَ رَبَّكُم كَمَا تَرَونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدرِ لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤيَتِهِ ، فَإِن استَطَعتُمْ أَن لاَ تُغلَبُوا عَلَى الصَّلاَةِ قَبلَ طُلُوعِ الشَّمسِ وَصَلاَةٍ قَبلَ غُرُوبِهَا فَافعَلُوا » مُتفقٌ عَلَيهِ .

يسأله فى آخر الحديث أن يقضى عنه دينه وأن يغنيه من فقر .

قوله (أيها الناس اربعوا على انفسكم ... الخ) أفاد هذا الحديث قربه سبحانه من عباده ، وانه ليس بحاجة الى ان يرفعوا اليه أصواتهم فانه يعلم السر والنجوى ، وهذا القرب المذكور فى الحديث قرب احاطة وعلم وسمع ورؤية فلا ينافى علوه على خلقه .

هذا الحديث الصحيح المتواتر يشهد لما دلت عليه الآيات السابقة من رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الجنة وتمتعهم بالنظر الى وجهه الكريم ، وهذه النصوص من الآيات والاحاديث تدل على أمرين : أولهما : علوه تعالى عن خلقه لانها صريحة فى أنهم يرونه من فوقهم . ثانيهما : ان أعظم أنواع النعيم هو النظر الى وجه الله الكريم .

وقوله (كما ترون القمر ليلة البدر) المراد تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئى بالمرئى ، يعنى ان رؤيتهم لربهم تكون من الظهور والوضوح كرؤية القمر فى أكمل حالاته ، وهى كونه بدرا ولا يحجبه سحاب ، ولهذا قال بعد ذلك (لا تضامون فى رؤيته) روى بتشديد الميم من التضام بمعنى التزاحم والتلاصق ، والتاء يجوز فيها الضم والفتح ، على أن الاصل تتضامون فحذفت احدى التاءين تخفيفا ، وروى بتخفيف الميم من الضيم بمعنى الظلم ، يعنى لا يلحقكم فى رؤيته ضيم ولا غبن .

وفى حثه صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث على صلاة العصر وصلاة الفجر خاصة اشارة الى أن من حافظ عليهما فى جماعة نال هذا النعيم الكامل الذى يضمحل بازائه كل نعيم ، وهو يدل على تأكد هاتين

« إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عَن رَبِّهِ بِمَا يُخبِرُ بِهِ ، فَإِنَّ الفِرقَةَ النَّاجِيَةَ أَهلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يُؤمِنُونَ بِذَلِكَ كَمَا يُؤمِنُونَ بِمَا أَخبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيرِ تَحرِيفٍ وَلاَ تَعطِيلٍ وَمِن غَيرِ تَكيِيفٍ وَلاَ تَمثِيلٍ ، بَل هُمُ الوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ ، كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الوَسَطُ فِي الأُمَـــمِ .

الصلاتين كما دل على ذلك الحديث الآخر « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر » متفق عليـــه .

قوله (الى أمثال هذه الاحاديث الخ) لما كان ما ذكـــره المؤلف من الاحاديث ليس هو كل ما ورد فى باب الصفات من الاخبار ، نبه على أن أمثال هذه الاحاديث التى ذكرها مما يخبر فيه الرســـول صلى الله عليه وسلم عن ربه بما يخبر به ، فان حكمه كذلك وهـــو وجوب الايمان بما يتضمنه من أسماء الله وصفاته ، ثم عاد فأكـــد معتقد أهل السنة والجماعة ، وهو أنهم يؤمنون بما وردت بـــه السنة الصحيحة من صفات كايمانهم بما أخبر الله فى كتابه من غيـــر تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

ثم أخبر عن أهل السنة والجماعة بأنهم وسط بين الامم السـابقة قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على النـــاس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ومعنى وسطا عدولا خيارا كمـــا ورد الحديث بذلـــك .

فهذه الامة وسط بين الامم التى تجنح الى الغلو الضار والامم التى تميل الى التفريط المهلك ، فان من الامم من غلا فى المخلوقين وجعل لهم من صفات الخالق وحقوقه ما جعل ، كالنصارى الذيـــن غلوا فى المسيح والرهبان . ومنهم من جفا الانبياء واتباعهم حتى قتلهم

« فَهُم وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهلِ التَّعطِيلِ الجَهْمِيَّةِ وَأَهلِ التَّمثِيلِ المُشَبِّهَةِ » .

ورد دعوتهم كاليهود الذين قتلوا زكريا ويحي وحاولوا قتل المسيح ورموه بالبهتان ، واما هذه الامة فقد آمنت بكل رسول ارسله الله واعتقدت رسالتهم وعرفت لهم مقاماتهم الرفيعة التى فضلهم الله بها .

ومن الامم ايضا من استحلت كل خبيث وطيب ، ومنها من حرم الطيبات غلوا ومجاوزة . واما هذه الامة فقد احل الله لهـــا الطيبات وحرم عليها الخبائث ، الى غير ذلك من الامور التى من الله على هذه الامة الكاملة بالتوسط فيهـــا .

فكذلك اهل السنة والجماعة متوسطون بين فرق الامة المبتدعة التى انحرفت عن الصراط المستقيم .

قوله (فهم وسط فى باب صفات الله الخ) يعنى ان اهل السنة والجماعة وسط فى باب الصفات بين من ينفيها ويعطل الذات العلية عنها ويحرف ما ورد فيها من الآيات والاحاديث عن معانيها الصحيحـــة الى ما يعتقده هو من معان بلا دليل صحيح ولا عقل صريح ، كقولهم رحمة الله ارادته الاحسان ، ويده قدرته ، وعينه حفظه ورعايته ، واستواؤه على العرش استيلاؤه ، الى امثال ذلك من انواع النفـــى والتعطيل التى اوقعهم فيها سوء ظنهم بربهم وتوهمهم ان قيام هذه الصفات به لا يعقل الا على النحو الموجـــود فى قيامها بالمخلوق .

ولقد احسن القائل حيث يقول :

وَقُصَارَى أَمرِ مَنْ أَوَّ لَ أَن ظَنُّوا الظُّنُونَـــا
فَيَقُولُـــونَ عَلَى الـــرَّحْمَـــنِ مَـــا لَا يَعلَمُونَـــا

وانما سمى اهل التعطيل جهمية نسبة الى الجهم بن صفوان

الترمذى راس الفتنة والضلال وقد توسع فى هذا اللفظ حتى اصبح يطلق على كل من نفى شيئا من الاسماء والصفات ، فهو شامل لجميع فرق النفاة من فلاسفة ومعتزلة واشعرية وقرامطة باطنية .

فاهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء الجهمية النفاة وبين اهل التمثيل المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه ومثلوه بعباده ، وقد رد الله على الطائفتين بقوله (ليس كمثله شىء) فهذا يرد على المشبهة ، وقوله (وهو السميع البصير) يرد على المعطلة .

واما اهل الحق فهم الذين يثبتون الصفات لله تعالى اثباتا بـلا تمثيل ، وينزهونه عن مشابهة المخلوقات تنزيها بلا تعطيـل ، فجمعوا احسن ما عند الفريقين ، اعنى التنزيه والاثبات ، وتركوا ما اخطاوا واساءوا فيه من التعطيل والتشبيه .

قوله (وهم وسط الخ) قال الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز ابن مانع فى تعليقه على هذه العبارة ما نصه :

اعلم ان الناس اختلفوا فى افعال العباد هل هى مقدورة للرب ام لا ؟ فقال جهم واتباعه وهم الجبرية : ان ذلك الفعل مقدور للرب لا للعبد وكذلك قال الاشعرى واتباعه ان المؤثر فى المقـدور قدرة الرب دون قدرة العبد . وقال جمهور المعتزلة وهم القدرية ، اى نفاة القدر : ان الرب لا يقدر على عين مقدور العبد . واختلفوا هل يقدر على مثل مقدوره ، فاثبته البصريون كابى على وابـى هاشم ، ونفاه الكعبى واتباعه البغداديون .

وقال اهل الحق : افعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهى مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه ، فالجبرية غلوا فى اثبات القدر فنفوا فعل العبـد اصلا .

« وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ الْمُرجِئَةِ وَالوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيرِهِمْ »
« وَفِي بَابِ أَسمَاءِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ بَينَ الحَرُورِيَّةِ وَالْمُعتَزِلَةِ وَبَيْنَ المرجِئَةِ وَالجَهمِيَّـــــةِ »

والمعتزلة نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله ولهذا كانوا مجوس هذه الامة . وهدى الله المؤمنين اهل السنة لما اختلفوا فيه مـــن الحق باذنه . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، فقالوا العباد فاعلون والله خالقهم وخالق افعالهم كما قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وانما نقلنا هذه العبارة بنصها لانها تلخيص جيـــد لمذاهب المتكلمين فى القدر وافعال العباد .

قوله (وفى باب وعيد الله الخ) يعنى أن أهل السنة والجماعة وسط فى باب الوعيد بين المفرطين من المرجئة الذين قالوا لا يضـــر مع الايمان ذنب كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وزعموا أن الايمان مجرد التصديق بالقلب وان لم ينطق به . وسموا بذلك نسبة الـــى الارجاء ، أى التاخير لانهم اخروا الاعمال عن الايمان .

ولا شك ان الارجاء بهذا المعنى كفر يخرج صاحبه عن الملة ، فانه لابد فى الايمان من قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمـــل بالاركان ، فاذا اختل واحد منها لم يكن الرجل مؤمنـــا .

واما الارجاء الذى نسب الى بعض الائمة من اهل الكوفـــة كابى حنيفة وغيره ، وهو قولهم ان الاعمال ليست من الايمـــان ، ولكنهم مع ذلك يوافقون اهل السنة علـــى ان الله يعذب من يعذب من اهل الكبائر بالنار ، ثم يخرجهم منها بالشفاعة وغيرها ، وعلى انه لابد فى الايمان من نطق باللسان ، وعلى ان الاعمال المفروضـــة واجبة يستحق تركها الذم والعقاب ، فهذا النوع من الارجاء ليس كفرا وان كان قولا باطلا مبتدعا لاخراجهم الاعمال عن الايمان .

وأما الوعيدية فهم القائلون بأن الله يجب عليه عقلا أن يعذب العاصى كما يجب عليه ان يثيب المطيع ، فمن مات على كبيرة ولم يتب منها لا يجوز عندهم أن يغفر الله له ، ومذهبهم باطل مخالف للكتاب والسنة ، قال تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقد استفاضت الاحاديث فى خروج عصاة الموحدين من النار ودخولهم الجنة .

فمذهب اهل السنة والجماعة وسط بين نفاة الوعيد من المرجئة وبين موجبيه من القدرية ، فمن مات على كبيرة عندهم فامره مفوض الى الله ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه كما دلت عليه الآية السابقة . واذا عاقبه بها فانه لا يخلد خلود الكفار بل يخرج من النار ويدخل الجنة .

قوله (وفى باب أسماء الايمان الخ) كانت مسألة الاسماء والاحكام من أول ما وقع فيه النزاع فى الاسلام بين الطوائف المختلفة وكان للاحداث السياسية والحروب التى جرت بين على ومعاوية رضى الله عنهما فى ذلك الحين وما ترتب عليها من ظهور الخوارج والرافضة والقدرية اثر كبير فى ذلك النزاع والمراد بالاسماء هنا أسماء الدين مثل مؤمن ومسلم وكافر وفاسق الخ ، والمراد بالاحكام احكام أصحابها فى الدنيا والآخرة .

فالخوارج الحرورية والمعتزلة ذهبوا الى انه لا يستحق اسم الايمان الا من صدق بجنانه واقر بلسانه وقام بجميع الواجبات واجتنب جميع الكبائر ، فمرتكب الكبيرة عندهم لا يسمى مؤمنا باتفاق بين الفريقين ، ولكنهم اختلفوا هل يسمى كافرا او لا . فالخوارج يسمونه كافرا ويستحلون دمه وماله ، ولهذا كفروا عليا ومعاوية وأصحابهما واستحلوا منهم ما يستحلون من الكفار .

واما المعتزلة فقالوا ان مرتكب الكبيرة خرج من الايمان ولم يدخل فى الكفر فهو بمنزلة بين المنزلتين ، وهذا احد الاصول التى قام عليها مذهب الاعتزال .

واتفق الفريقان ايضا على ان من مات على كبيرة ولم يتب منها فهو مخلد فى النار ، فوقع الاتفاق بينهما فى أمرين :

١ — نفى الايمان عن مرتكب الكبيرة .

٢ — خلوده فى النار مع الكفار . ووقع الخلاف ايضا فى موضعين احدهما تسميته كافرا والثانى استحلال دمه وماله وهو الحكم الدنيوى . واما المرجئة فقد سبق بيان مذهبهم ، وهو انه لا يضر مع الايمان معصية ، فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الايمان ولا يستحق دخول النــار .

فمذهب اهل السنة والجماعة وسط بين هذين المذهبين فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن ناقص الايمان ، قد نقص من ايمانه بقدر مــا ارتكب من معصية فلا ينفون عنه الايمان اصلا كالخوارج والمعتزلة ولا يقولون بانه كامل الايمان كالمرجئة الجهمية ، وحكمه فى الآخرة عندهم انه قد يعفو الله عز وجل عنه فيدخل الجنة ابتداء أو يعذبه بقدر معصيته ثم يخرجه ويدخله الجنة كما سبق ، وهذا الحكم ايضا وسط بين من يقول بخلوده فى النار وبين من يقول انه لا يستحق على المعصية عقابا .

قوله (وفى أصحاب رسول الله الخ) المعروف أن الرافضة قبحهم الله يسبون الصحابة رضى الله عنهم ويلعنونهم وربما كفروهم أو كفروا بعضهم والغالبية منهم مع سبهم لكثير من الصحابة والخلفاء يغلون فى على واولاده ويعتقدون فيهم الالهية ، وقد ظهر هؤلاء فى حياة على رضى الله عنه بزعامة عبد الله بن سبأ الذى كان يهوديا واسلم واراد ان يكيد

(فَصْــــلٌ)

وَقد دَخَلَ فِيمَا ذَكَرنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الإِيمَانُ بِمَا أَخبَرَ اللّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ وَتَوَاتَرَ عَن رَسُولِهِ وَأَجمَعَ عَلَيهِ سَلَفُ الأُمَّةِ مِن أَنَّه سُبحَانَهُ فَوقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرشِهِ بَائِنٌ عَلَى خَلقِهِ ، وَهُوَ سُبحَانَهُ مَعَهُم أَينَمَا كَانُوا يَعلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ كَمَا جَمَعَ بَينَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:(هُوَ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ يَعلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرضِ وَمَا يَخرُجُ مِنهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَينَمَا كُنتُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ) .

للاسلام واهله كما كاد اليهود من قبل للنصرانية وافسدوها على اهلها ، وقد حرقهم على بالنار لاطفاء فتنتهم ، وروى عنه فى ذلك قوله :

لَمَّا رَأَيتُ الأَمرَ أَمراً مُنكَــرا أَجَّجْتُ نَــارِي وَدَعَوْتُ قُنْبُــرا

واما الخوارج فقد قابلوا هؤلاء الروافض فكفروا عليا ومعاوية ومن معهما من الصحابة وقاتلوهم واستحلوا دماءهم واموالهم .

واما اهل السنة والجماعة فكانوا وسطا بين غلو هؤلاء وتقصير اولئك وهداهم الله الى الاعتراف بفضل اصحاب نبيهم وانهم اكمل هذه الامة ايمانا واسلاما وعلما وحكمة ، ولكنهم لم يغلوا فيهم ولم يعتقدوا عصمتهم ، بل قاموا بحقوقهم واحبوهم لعظيم سابقتهم وحسن بلائهم فى نصرة الاسلام وجهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله (وقد دخل فيما ذكرناه من الايمان الخ) صرح المؤلف هنا بمسألة علو الله تعالى واستوائه على عرشه بائنا من خلقه كما اخبر الله عن ذلك فى كتابه وكما تواتر الخبر بذلك عن رسوله وكما اجمع عليه سلف الامة الذين هم أكملها علما وايمانا ، مؤكدا بذلك ما سبق ان ذكره فى هذا الصدد ومشددا النكير على من انكر ذلك من الجهمية

وليسَ مَعنَى قَولِهِ « وَهُوَ مَعَكُم » أنَّهُ مُختَلِط بِالخَلْقِ فَإنَّ هَذَا لا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ ، بَل القَمَرُ آيَةٌ مِن آياتِ اللهِ مِن أَصغَرِ مَخلُوقَاتِهِ ، وَهُوَ مَوضُوعٌ فِي السَّمَاءِ ، وَهُوَ مَعَ المُسَافِرِ وَغَيرِ المُسَافِرِ أَينَمَا كَانَ .

وَهُوَ سُبحَانَهُ فَوقَ عَرشِهِ رَقِيبٌ عَلَى خَلقِهِ مُهَيمِنٌ عَلَيهِم مُطَّلِعٌ عَلَيهِم إلَى غَيرِ ذَلِكَ مِن مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ ، وَكُلُّ هَذَا الكَلامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ — مِنْ أَنَّهُ فَوقَ العَرشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا — حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ لا يَحتَاجُ إلَى تَحرِيفٍ ، وَلَكِن يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الكَاذِبَةِ مِثل أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَولِهِ (فِي السَّمَاءِ) أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَو تُقِلُّهُ ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإجمَاعِ أَهلِ العِلمِ وَالإيمَانِ ، فَإنَّ اللهَ قَد وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ وَهُوَ يُمسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ أَن تَزُولا ، وَيُمسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرضِ إلَّا بِإذنِهِ ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرضُ بِأَمرِهِ .

والمعتزلة ومن تبعهم من الاشاعرة . ثم بين أن استواءه على عرشه لا ينافى معيته وقربه من خلقه ، فان المعية ليس معناها الاختلاط والمجاورة الحسية ، وضرب لذلك مثلا بالقمر الذى هو موضوع فى السماء وهو مع المسافر وغيره اينما كان بظهوره واتصال نوره فاذا جاز هذا بالنسبة للقمر وهو من اصغر مخلوقات الله أفلا يجوز بالنسبة الى اللطيف الخبير الذى احاط بعباده علما وقدرة والذى هو شهيد مطلع عليهم يسمعهم ويراهم ويعلم سرهم ونجواهم ، بل العالم كله سمواته وارضه من العرش الى الفرش كله بين يديه سبحانه كأنه بندقة فى يد احدنا ، أفلا يجوز لمن هذا شأنه أن يقال انه مع خلقه مع كونه عاليا عليهم بائنا منهم فوق عرشه ؟ بلى يجب الايمان بكل من علوه تعالى ومعيته ، واعتقاد أن ذلك كله حق على حقيقته من غير أن يساء فهم ذلك او يحمل على معان فاسدة كأن يفهم من قوله (وهو معكم) معية الاختلاط والامتزاج كما يزعمه الحلولية ، أو يفهم من قوله (فى السماء) أن السماء ظرف حاو له محيطة به . كيف

(فَصْـــلٌ)

وَقد دَخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ كَمَا جَمَعَ بَينَ ذَلِــكَ فِي قَولِهِ (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) الآية — وَقَولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « إِنَّ الذي تَدعُونَهُ أَقرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ » وَمَا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِن قُربِهِ وَمَعِيَّتِهِ ، لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوقِيَّتِهِ فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ ، وَهُوَ عَالٍ فِي دُنُوِّهِ قَرِيبٌ فِي عُلُــوِّهِ .

وَمِنَّ الإِيمَانِ بِاللهِ وَكُتُبِهِ الإِيمَانُ بِأَنَّ القُرآنَ كَلَامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غَيرَ مَخلُوقٍ، مِنهُ بَدَأَ وَإِلَيهِ يَعُودُ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً ، وَأَنَّ هَذَا القُرآنَ الذِي أَنزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ هُوَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً لَا كَلَامُ غَيرِهِ

وقد وسع كرسيه السموات والارض جميعا ؟ وهو الذى يمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ، فسبحان من لا يبلغه وهم الواهمين ولا تدركه أفهام العالمين .

قوله (وقد دخل فى ذلك الايمان الخ) يجب الايمان بما وصف الله به نفسه من أنه قريب مجيب ، فهو سبحانه قريب ممن يدعوه ويناجيه ، يسمع دعاءه ونجواه ويجيب دعاءه متى شاء وكيف شاء فهو تعالى قريب قرب العلم والاحاطة كما قال تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبــل الوريــد) .

وبهذا يتبين أنه لا منافاة أصلا بين ما ذكر فى الكتاب والسنــة من قربه تعالى ومعيته وبين ما فيهما من علوه تعالى وفوقيته ، فهذه كلها نعوت له على ما يليق به سبحانه ليس كمثله شىء فى شىء منها .

قوله (ومن الايمان بالله وكتبه الخ) جعل المصنف الايمــان بأن القرآن كلام الله داخلا فى الايمان بالله لانه صفة من صفاته ،

وَلَا يَجُوزُ إِطلَاقُ القَولِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَن كَلَامِ اللهِ أَو عِبَارَةٌ بَل إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَو كَتَبُوهُ فِي المَصَاحِفِ لَم يَخرُجْ بِذَلِكَ عَن أَن يَكُونَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً ، فَإِنَّ الكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبتَدِئاً لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغاً مُؤَدِّياً ، وَهُوَ كَلَامُ اللهِ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ ، لَيسَ كَلَامُ اللهِ الحُرُوفَ دُونَ المَعَانِي وَلَا المَعَانِي دُونَ الحُرُوفِ ؟

فلا يتم الايمان به سبحانه الا بها ، اذ الكلام لا يكون الا صفة للمتكلم والله سبحانه موصوف بانه متكلم بما شاء متى شاء ، وانه لم يزل ولا يزال يتكلم بمعنى أن نوع كلامه قديم وان كانت آحاده لا تزال تقع شيئا بعد شيء بحسب حكمته .

وقد قلنا فيما سبق أن الاضافة فى قولنا « القرآن كلام الله » هى من اضافة الصفة للموصوف فتفيد أن القرآن صفة الرب سبحانه وانه تكلم به حقيقة بالفاظه ومعانيه بصوت نفسه فمن زعم أن القرآن مخلوق من المعتزلة فقد أعظم الفردية على الله ونفى كلام الله عن الله وصفا وجعله وصفا لمخلوق وكان أيضا متجنيا على اللغة فليس فيها متكلم بمعنى خالق للكلام . ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا حكاية عن كلام الله كما تقوله الكلابية او أنه عبارة عنه كما تقوله الاشعرية ، فقد قال بنصف قول المعتزلة حيث فرق بين الالفاظ والمعانى ، فجعل الالفاظ مخلوقة والمعانى عبارة عن الصفة القديمة ، كما أنه ضاهى النصارى فى قولهم بحلول اللاهوت وهو الكلمة فى الناسوت وهو جسد عيسى عليه السلام ، اذ قال بحلول المعانى التى هى الصفة القديمة فى هذه الالفاظ المخلوقة ، فجعل الالفاظ ناسوتا لها .

والقرآن كلام الله حيث تصرف ، فمهما كتبناه فى المصاحف أو تلوناه بالالسنة لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ، لان الكلام كما قال المصنف انما يضاف الى من قاله مبتدئا لا الى من قاله مبلغا

وَقد دَخَلَ أَيضاً فِيمَا ذَكَرنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ ، الإِيمَانُ بِأَنَّ المُؤمِنِين يَرَونَهُ يَومَ القِيَامَةِ عِياناً بِأَبصَارِهِمْ كَمَا يَرَونَ الشَّمسَ صَحْواً لَيسَ بِهَا سَحَابٌ ، وَكَمَا يَرَونَ القَمَرَ لِيلَةَ البَدرِ لاَ يُضَامُونَ فِي رُؤيَتِهِ ، يَرَونَهُ سُبحَانَهُ وَهُم فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ ، ثُمَّ يَرَونَهُ بَعدَ دُخُولِ الجَنَّةِ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى .

مـــؤديـــا .

وأما معنى قول السلف (منه بدأ واليه يعود) فهو من البدء يعنى أن الله هو الذى تكلم به ابتداء لم يبتدأ من غيـــره ، ويحتمـــل أن يكون من البدء بمعنى الظهور ، يعنى انه هو الذى تكلم به وظهر منه لم يظهر من غيره ، ومعنى اليه يعود أى يرجع اليه وصفـــا ، لانه وصفه القائم به ، وقيل معناه يعود اليه فى آخر الزمان حين يرفع من المصاحف والصدور ، كما ورد فى اشراط الساعة .

وأما كون الايمان بأن القرآن كلام الله داخلا فى الايمان بالكتب فان الايمان بها ايمانا صحيحا يقتضى ايمان العبد بأن الله تكلم بها بألفاظهـــا ومعانيها ، وأنها جميعا كلامه هو لا كلام غيره ، فهـــو الذى تكلم بالتوراة بالعبرانية ، وبالانجيل بالسريانية ، وبالقرآن بلسان عـــربـــى مبيـــن .

قوله (وقد دخل أيضا فيما ذكرناه الخ) تقدم الكلام على رؤية المؤمنين لربهم عز وجل فى الجنة كما دلت على ذلك الآيات والاحاديث الصريحة ، فلا حاجة بنا الى اعادة الكلام فيها .

غير أن قوله يرونه سبحانه وهم فى عرصات القيامة قد يوهم أن هذه الرؤية ايضا خاصة بالمؤمنين ولكن الحق انها عامة لجميـــع

(فَصْــــلٌ)

وَمِنَ الإيمَانِ باليَومِ الآخِرِ الإيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَكُونُ بَعدَ المَوتِ فَيُؤمِنُونَ بِفِتنَةِ القَبرِ وَبِعَذَابِ القَبرِ وَنَعِيمِهِ . فَأَمَّا الفِتنَةُ فَإِنَّ النَّاسَ يُمتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِم ، فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ : مَن رَبُّكَ وما دِينُكَ ومن نَبِيُّكَ ؟ فَيُثَبِّتُ اللهُ الذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِي الآخِرَةِ ، فَيَقُولُ المُؤمِنُ رَبِّي اللهُ ،وَالإسلامُ دِينِي وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ نَبِيِّي . وَأَمَّا المُرتَابُ فَيَقُولُ هَاه هَاه لَا أَدرِي سَمِعتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيئــاً فَقُلتُهُ ، فَيُضرَبُ بِمِرزَبَةٍ مِنْ حَدِيــدٍ فَيَصِيحُ صَيحَةً يَسمَعُهَا كُلُّ شَيءٍ إِلاَّ الإنسَان ، وَلَو سَمِعَهَا الإِنسَــانُ لَصُعِقَ ــ ثُمَّ بَعدَ هَذِهِ الفِتنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ إِلَى أَن تَقُــومَ القِيَامَةُ الكُبرَى فَتُعَادُ الأَروَاحُ إِلَى الأَجسَادِ .

اهل الموقف حين يجيء الرب لفصل القضاء بينهم كما يدل عليه قوله تعالى « هل ينظرون الا ان ياتيهم الله فى ظلل من الغمام » الآية .

والعرصات جمع عرصة وهى كل موضع واسع لا بناء فيه .

قوله (ومن الايمان باليوم الآخر الخ) اذا كان الايمان باليــوم الآخر احد الاركان الستة التى يقوم عليها الايمان فان الايمان بــه ايمانا تاما كاملا لا يتحقق الا اذا آمن العبد بكل ما اخبر به النبــى صلى الله عليه وسلم من امور الغيب التى تكون بعد الموت والضابط فى ذلك انها امور محكمة اخبر بها الصادق صلوات الله عليه وسلامه وآله وكل ممكن اخبر به الصادق يجب الايمان بوقوعه كما اخبر ، فــان هذه الامور لا تستفاد الا من خبر الرسول ــ فاهل السنة والجماعــة يؤمنون بذلك كلــه .

واما اهل المروق والالحاد من الفلاسفة والمعتزلة فينكرون هذه الامور من سؤال القبر ومن نعيم القبر وعذابه والصراط والميــزان

وَتَقُومُ القِيَامَةُ التي أَخبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ وَأَجمَعَ عَلَيهَا المُسلِمُون ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِن قُبُورِهِم لِرَبِّ العَالَمِين حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً وَتَدنُو مِنهُم الشَّمسُ وَيُلجِمُهُم العَرَقُ ، فَتُنصَبُ المَوَازِينُ فَتُوزَنُ بِهَا أَعمَالُ العِبَادِ .

وغير ذلك بدعوى أنها لم تثبت بالعقل ، والعقل عندهم هو الحاكم الاول الذى لا يجوز الايمان بشىء الا عن طريقه ، وهم يردون الاحاديث الواردة فى هذه الامور بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تقبل فى بـاب الاعتقاد وأما الآيات فيأولونها مما يصرفها عن معانيها . والاضافة فى قوله (بفتنة القبر) على معنى (فى) اى بالفتنة التى تكون فى القبر وأصل الفتنة وضع الذهب ونحوه على النار لتخليصه من الاوضار والعناصر الغربية ، ثم استعملت فى الاخبار والامتحان . وأما عذاب القبر ونعيمه فيدل عليه قوله تعالى فى حق آل فرعون (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) وقوله سبحانه عن قوم نوح (مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا نارا) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « القبر اما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

والمِرْزَبَة بالتخفيف المطرقة الكبيرة ، ويقال لها أيضا إرزَبَّة بالهمزة والتشديد .

قوله (وتقوم القيامة الخ) يعنى القيامة الكبرى وهذا الوصف للتخصص احترز به عن القيامة الصغرى التى تكون عند الموت كما فى الخبر « من مات فقد قامت قيامته » وذلك ان الله عز وجل اذا أذن بانقضاء هذه الدنيا امر اسرافيل عليه السلام أن ينفخ فى الصور النفخة الاولى فيصعق كل من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ، وتصبح الارض صعيدا جرزا ، والجبال كثيبا مهيلا ،

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . وَتُنشَرُ الدَّوَاوِينُ ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ ـ فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَو مِن وَرَاءِ ظَهْرِهِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) .

ويحدث كل ما أخبر الله به فى كتابه لاسيما فى سورتى التكوير والانفطار ، وهذا هو آخر أيام الدنيا ، ثم يأمر الله السماء فتمطر مطرا كمنى الرجال اربعين يوما فينبت منه الناس فى قبورهم من عجب اذنابهم وكل ابن آدم يبلى الا عجب الذنب حتى اذا تم خلقهم وتركيبهم امر الله اسرافيل بان ينفخ فى الصور النفخة الثانية فيقوم الناس من الاجداث أحياء فيقول الكفار والمنافقون حينئذ (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) ويقول المؤمنون (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) (١) ثم تحشرهم الملائكة الى الموقف حفاة غير منتعلين عراة غير مكتسين غرلا غير مختتنين جمع اغرل وهو الاقلف ، والغرلة القلفة ، واول من يكتسى يوم القيامة ابراهيم كما فى الحديث . وهناك فى الموقف تدنو الشمس من رؤوس الخلائق ويلجمهم العرق ، فمنهم من يبلغ كعبيه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلغ ثدييه ومنهم من يبلغ ترقوته كل على قدر عمله ، ويكون أناس فى ظل الله عز وجل ، فاذا اشتد بهم الامر وعظم الكرب استشفعوا الى الله عز وجل بالرسل والانبياء أن ينقذهم مما هم فيه ، وكل رسول يحيلهم على من بعده حتى يأتوا نبينا صلى الله عليه وسلم فيقول : انا لها ويشفع فيهم فينصرفون الى فصل القضاء وهناك تنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد وهى

---

(١) ويؤيد ذلك قوله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم والايمان » الآية.

وَيُحَاسِبُ اللَّهُ الخَلَائِقَ وَيَخلُو بِعَبدِهِ المُؤمِـنِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ، كَمَـا

موازين حقيقية كل ميزان منها له لسان وكفتان ويقلب الله اعمال العباد (وهى اعراض) اجساما لها ثقل فتوضع الحسنات فى كفة والسيئات فى كفة كما قال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

ثم تنشر الدواوين وهى صحائف الاعمال فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى اهله مسرورا ، واما من أوتى كتابه بشماله او من وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا ويقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيــه . قال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا) .

واما قوله تعالى (وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه) فقــد قال الراغب اى عمله الذى طار عنه من خير وشر ولكن الظاهــر أن المراد بالطائر هنا نصيبه فى هذه الدنيا وما كتب له فيها مــن رزق وعمل كما فى قوله تعالى (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) يعنــى ما كتب عليهم فيــه .

قوله (ويحاسب الله الخلائق الخ) المراد بتلك المحاسبة تذكيرهم وانباؤهم بما قدموه من خير وشر احصاه الله ونسوه قال تعالى : ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون . وفى الحديث الصحيــح « من نوقش الحساب عذب » فقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله أو ليس الله يقول -(فسوف يحاسب حسابا يسيرا) ؟ فقال : انما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك .

واما قوله (ويخلو بعبده المؤمن) فقد ورد عن ابن عمر رضى

وُصِفَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَمَّا الكُفَّارُ فَلَا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَن تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتِ لَهُمْ وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعمَالُهُمْ فَتُحصَى فَيُوقَفُونَ عَلَيهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا .

وَفِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ الحَوْضُ المَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحلَى مِنَ العَسَلِ ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجومِ السَّمَاءِ طُولُه شَهرٌ وَعَرضُهُ شَهرٌ ، مَن يَشرَبُ مِنهُ شُربَةً لَا يَظمَأُ بَعدَهَا أَبَداً .

الله عنهما ان الله عز وجل يدنى منه عبده المؤمن فيضع عليه كنفه ويحاسبه فيما بينه وبينه ويقرره بذنوبه ، فيقول : الم تفعل كذا يوم كذا ، الم تفعل كذا يوم كذا حتى اذا قرره بذنوبه وايقن انه قد هلك قال له : سترتها عليك فى الدنيا وانا اغفرها لك اليوم .

واما قوله (فانه لا حسنات لهم) يعنى الكفار لقوله تعالى (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقوله (مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء) والصحيح اعمال الخير التى يعملها الكافر يجازى بها فى الدنيا فقط حتى اذا جاء يوم القيامة وجد صحيفة حسناته بيضاء وقيل يخفف بها عنه من عذاب غير الكفر .

واما قوله (فى عرصات القيامة) فان الاحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حد التواتر رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيا فمن انكره فاخلق به ان يحال بينه وبين وروده يوم العطش الاكبر وقد ورد فى أحاديث : ان لكل نبى حوضا ولكن حوض نبينا صلى الله عليه وسلم اعظمها واحلاها واكثرها واردا جعلنا الله منهم بفضله وكرمه .

وَالصِّرَاطُ مَنصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّم وَهُوَ الجسرُ الذي بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى قَدرِ أعمَالِهِم فَمِنهُم مَن يَمُرُّ كَلَمحِ البَصَرِ ، وَمِنهُم مَن يَمُرُّ كَالبَرقِ ، وَمِنهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ ، وَمِنهُم مَن يَمُرُّ كَالفَرَسِ الجَوَادِ ، وَمِنهُم مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الإبلِ ، وَمِنهُم مَن يَعدُو عَدْواً ، وَمِنهُمْ مَن يَمشِي مَشياً ، وَمِنهُم مَن يَزحَفُ زَحفاً وَمِنهُم مَن يُخطَفُ خَطفاً وَيُلقَى فِي جَهَنَّمَ فَإنَّ الجسرَ عَلَيهِ كَلَالِيبُ تَخطَفُ النَّاسَ بِأعمَالِهِم فَمَن مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ دَخَل الجَنَّةَ ، فَإذَا عَبَرُوا عَليهِ وَقَفُوا عَلَى قَنطَرَةٍ بَينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقتَصُّ لِبَعضِهِم مِن بَعضٍ ، فَإذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُم فِي دُخُولِ الجَنَّةِ .

وَأَوَّلُ مَن يَستَفتِحُ بَابَ الجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، وَأَوَّلُ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ ، وَلَه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فِي القِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ : أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولَى فَيَشْفَعُ فِي أهلِ المَوقِفِ حَتَّى يُقضَى بَينَهُمْ بَعدَ أن يَتَرَاجَعَ الأَنبِيَاءُ ، آدَمُ وَنُوحٌ وَإبرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابنُ مَريَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنتَهِيَ إِلَيهِ .

قوله (والصراط منصوب الخ) اصل الصراط الطريق الواسع قيل سمى بذلك لانه يسترط السابلة ، اى يبتلعهم اذا سلكوه ، وقد يستعمل فى الطريق المعنوى كما فى قوله تعالى (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) .

والصراط الاخروى الذى هو الجسر الممدود على ظهر جهنم بين الجنة والنار حق لا ريب فيه لورود خبر الصادق به ومن استقام على صراط الله الذى هو دينه الحق فى الدنيا استقام على هذا الصراط فى الآخرة وقد ورد فى وصفه انه أرق من الشعرة واحد من السيف .

قوله (واول من يستفتح باب الجنة محمد صلى الله عليه وسلم) يعنى اول من يحرك حلقها طالبا ان يفتح له بابها كما قال عليه السلام

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ فَيَشفَعُ فِي أَهلِ الجَنَّةِ أَن يَدخُلُوا الجَنَّةَ ، وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ .

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ فَيَشفَعُ فِيمَن استَحَقَّ النَّارَ ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيرِهِم ، فَيَشفَعُ فِيمَن استَحَقَّ النَّارَ أَن لا يَدخُلَهَا ، وَيَشفَعُ فِيمَن دَخَلَهَا أَن يَخرُجَ مِنهَا .

« انا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وانا اول من تنشق عنه الارض ولا فخر ، وانا اول من يحرك حلق الجنة فادخلها ويدخلها معى فقراء امتى » يعنى بعد دخول الرسل والانبياء عليهم الصلاة والسلام يكون فقراء هذه الامة اول الناس دخولا الجنة .

واما قوله (وله صلى الله عليه وسلم فى القيامة ثلاث شفاعات) فأصل الشفاعة من قولنا : شفع كذا بكذا اذا ضمه اليه ، وسمى الشافع شافعا لانه يضم طلبه ورجاءه الى طلب المشفوع له .

والشفاعة من الامور التى ثبتت بالكتاب والسنة ، واحاديثها متواترة قال تعالى (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) فنفى الشفاعة بلا اذن اثباتا للشفاعة من بعد الاذن قال تعالى عن الملائكة (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) فبين الله الشفاعة الصحيحة وهى التى تكون باذنه ولمن يرتضى قوله وعمله .

واما ما يتمسك به الخوارج والمعتزلة فى نفى الشفاعة من مثل قوله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة — فمالنا من شافعين الخ) . فان الشفاعة المنفية هنا هى الشفاعة فى أهل الشرك . وكذلك الشفاعة الشركية التى يثبتها المشركون لاصنامهم ويثبتها النصارى للمسيح والرهبان ، وهى التى تكون بغير اذن الله ورضاه .

واما قوله (اما الشفاعة الاولى فيشفع فى أهل الموقف حتى

وَيُخرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَقوَاماً بِغَيرِ شَفَاعَةٍ بَل بِفَضلِهِ وَرَحمَتِهِ ، وَيَبقَى فِي الجَنَّةِ فَضلٌ عَمَّن دَخَلَهَا مِن أَهلِ الدُّنيَا ، فَيُنشِىءُ اللَّهُ لَهَا أَقوَامـاً فَيُدخِلُهُم الجَنَّـةَ .

وَأَصنَافُ مَا تَضَمَّنَتهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِن الحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ

يقضى بينهم) فهذه هى الشفاعة العظمى وهى المقام المحمود الذى يغبطه به النبيون والذى وعده الله أن يبعثه اياه بقوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) يعنى يحمده عليه أهل الموقف جميعا وقد أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم اذا سمعنا النداء أن نقول بعد الصلاة عليه « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة الفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته . وأما قوله (وأما الشفاعة الثانية فيشفع فى أهل الجنة أن يدخلوا الجنة) يعنى أنهم وقد استحقوا دخول الجنة لا يؤذن لهم بدخولها الا بعد شفاعة .

وأما قوله (وهاتان الشفاعتان خاصتان له) يعنى الشفاعة فى أهل الموقف والشفاعة فى أهل الجنة أن يدخلوها ، وتنضم اليهما ثالثة وهى شفاعته فى تخفيف العذاب عن بعض المشركين كما فى شفاعته لعمه أبى طالب فيكون فى ضحضاح من نار . كما ورد بذلك الحديث

وأما قوله (وأما الشفاعة الثالثة فيشفع فى من استحق النار) وهذه هى الشفاعة التى ينكرها الخوارج والمعتزلة ، فان مذهبهم أن من استحق النار لابد أن يدخلها ومن دخلها لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغيرها والاحاديث المستفيضة المتواترة ترد على زعمهم وتبطله .

وأما قوله (وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب الخ) فاعلم ان أصل الجزاء على الاعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل كما هو ثابت بالسمع ، وقد نبه الله العقول الى ذلك فى مواضع كثيرة من كتابه مثل قوله تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا

وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذكُورَةٌ فِي الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ وَالآثَارِ مِنَ العِلمِ المَأثُورِ عَنِ الأَنبِيَاءِ . وَفِي العِلمِ المَورُوثِ عَن مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِن ذَلِكَ مَا يَشفِي وَيَكفِي فَمَن ابتَغَاهُ وَجَدَهُ .

« وَتُؤمِنُ الفِرقَةُ النَّاجِيةُ مِن أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ. وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيئَينِ .

فَالدَّرَجَةُ الأُولَى الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِالخَلقِ وَهُم عَامِلُونَ بِعِلمِهِ القَدِيمِ الذِي هُوَ مَوصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَداً وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحوَالِهِمْ مِنَ الطاعَاتِ وَالمَعَاصِي وَالأَرزَاقِ وَالآجَالِ ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ مَقَادِيرَ الخَلقِ فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ قَالَ لَهُ اكتُبْ قَالَ مَا أَكتُبُ ؟ قَالَ

ترجعون) (أيحسب الانسان أن يترك سدى) فانه لا يليق فى حكمة الحكيم أن يترك الناس سدى مهملين ، لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا يثابون ولا يعاقبون ، كما لا يليق بعدله وحكمته أن يسوى بين المؤمن والكافر والبر والفاجر كما قال تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار) فان العقول الصحيحة تأبى ذلك وتنكره اشد الانكار .

وكذلك نبههم الله على ذلك بما وقعه من أيامه فى الدنيا من اكرام الطائعين ، وخذلان الطاغين ، وأما تفاصيل الاجزية ومقاديرها فلا يدرك الا بالسمع ، والنقول الصحيحة عن المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

والايمان بالقدر خيره وشره من الله تبارك وتعالى أحد الاركان الستة التى يدور عليها فلك الايمان كما دل عليه حديث جبريل وغيره وكما دلت عليه الآيات الصريحة من كتاب الله عز وجل .

اكتُب مَا هُوَ كَائنٌ إلَى يَوم القِيَامَةِ . فَمَا أَصَابَ الإنسَانَ لَم يَكُن لِيُخطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَم يَكُن لِيُصِيبَهُ.جَفَّتِ الأَقلاَمُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ كَمَا قَالَ تَعالَى (أَلم تَعلَمْ أَنَّ اللهَ يَعلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأرضِ،إنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) وَقَالَ (مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُم إلاَّ فِي كِتَابٍ مِن قَبلِ أَن نَبرَأَهَا ،إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) وَهَذا التَّقدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُملَةً وَتَفصِيلاً فَقَد كَتَبَ فِي اللَّوحِ المحفُوظِ مَا شَاءَ ، وَإذا خَلَقَ جَسَدَ الجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ بَعَثَ إلَيهِ مَلَكاً فَيُؤمَر بِأَربَعِ كَلِمَاتٍ فَيُقَالُ لَهُ اكتُبْ

وقد ذكر المؤلف هنا ان الايمان بالقدر على درجتين وان كلا منهما تتضمن شيئين ، فالدرجة الاولى تتضمن اولا الايمان بعلمه القديم المحيط بجميع الاشياء وانه تعالى علم بهذا العلم القديم الموصوف به ازلا وابدا كل ما سيعمله الخلق فيما لا يزال وعلم به جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والارزاق والآجال . فكل ما يوجد من أعيان واوصاف ويقع من افعال واحداث فهو مطابق لما علمه لله عز وجل ازلا

ثانيا ان الله كتب ذلك كله وسجله فى اللوح المحفوظ ، فما علم الله كونه ووقوعه من مقادير الخلائق واصناف الموجودات وما يتبع ذلك من الاحوال والاوصاف والافعال ودقيق الامور وجليلها قد امر القلم بكتابته كما قال صلى الله عليه وسلم قدر الله مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء ، وكما قال فى الحديث الذى ذكره المؤلف ان اول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال وما اكتب قال اكتب ما هو كائن الى يوم القيامة .

واول هنا بالنصب على الظرفية والعامل فيه قال أي له ذلك اول ما خلقه وقد روى بالرفع على انه مبتدأ خبره القلم ولهذا اختلف العلماء فى العرش والقلم ايهما خلق اولا . وحكى العلامة ابن القيم فى ذلك قولين واختار أن العرش مخلوق قبل القلم ، قال فى النونية :

رِزقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَم سَعِيدٌ وَنَحو ذَلِكَ، فَهَذَا التَّقدِيرُ قَـدْ كَانَ يُنكِرُهُ غُلاَةُ القَدَرِيَّةِ قَدِيماً وَمُنكِرُوه اليَومَ قَلِيل».

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ وَقُدْرَتُه الشَّامِلَةُ وَهُوَ الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ ، وَمَا لَم يَشَأ لَم يَكُن ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلاَ سُكُونٍ إِلاَّ بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبحَانَهُ لاَ يَكُونُ فِي مُلكِهِ مَا لاَ يُرِيدُ . وَأَنَّهُ سُبحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِـنَ المَوجُودَاتِ وَالمعدُومَاتِ ، فَمَا مِن مَخلُوقٍ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ إِلاَّ اللهُ خَالِقُهُ سُبحَانَهُ لاَ خَالِقَ غَيرُهُ وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَـد

وَالنَّاسُ مُختَلِفُونَ فِي القَلَمِ الَّذِي	كُتِبَ القَضَـاءُ بِهِ مِـنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبلَ العَرشِ أَو هُوَ بَعدَهُ	قَولاَنِ عِندَ أَبِي العَلاَ الهَمَدَانِي
وَالحَقُّ أَنَّ العَرشَ قَبلُ لِأَنَّـهُ	وَقتَ الكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَركَـانِ
وَكِتَابَةُ القَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَـتْ	إِيجَادَهُ مِنْ غَيرِ فَصْلِ زَمَـانِ

واذا كان القلم قد جرى بكل ما هو كائن الى يوم القيامة فكل ما يقع من كائنات واحداث فهو مطابق لما كتب فيه ، فما أصـاب الانسان لم يكن ليخطئه ، وما اخطأه لم يكن ليصيبه كما جاء فـى حديث ابن عباس رضى الله عنهما وغيره .

وهذا التقدير التابع للعلم القديم تارة يكون جملة كما فى اللوح المحفوظ فان فيه مقادير كل شىء ، ويكون فى مواضع تفصيـلا يخص كل فرد كما فى الكلمات الاربع التى يؤمر الملك بكتابتها عند نفـخ الروح فى الجنين يكتب رزقه واجله وعمله وشقى أم سعيد فهذا تقدير خاص وهذا التقدير السابق على وجود الاشياء قد كان ينكره غـلاة القدرية قديما مثل معبد الجهنى وغيلان الدمشقى وكانوا يقولون ان الامر انف . ومنكر هذه الدرجة من القدر كافر لانه أنكر معلوما من الدين بالضرورة قد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع .

أَمَرَ العِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ وَنَهَاهُم عَن مَعصِيَتِهِ . وَهُوَ سُبحَانَهُ يُحِبُّ المتَّقِينَ وَالمحسِنِينَ وَالمقسِطِينَ وَيَرضَى عَن الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ وَلاَ يَرضَى عَنِ القَومِ الفَاسِقِين ، وَلاَ يَأمُرُ بِالفَحشَاءِ وَلاَ يَرضَى لِعِبَادِهِ الكُفرَ وَلاَ يُحِبُّ الفَسَادَ .

قوله : (واما الدرجة الثانية من القدر ... الخ) فهى تتضمن شيئين ايضا أولهما الايمان بعموم مشيئته تعالى وان ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وانه لا يقع فى ملكه ما لا يريد وان افعال العباد من الطاعات والمعاصى واقعة بتلك المشيئة العامة التى لا يخرج عنها كائن سواء كان مما يحبه الله ويرضاه أم لا ، وثانيهما الايمان بأن جميع الاشياء واقعة بقدرة الله تعالى وانها مخلوقة له لا خالق لها سواه ، لا فرق فى ذلك بين افعال العباد وغيرها ، كما قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) .

ويجب الايمان بالامر الشرعى ، وان الله تعالى كلف العباد فأمرهم بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته ولا منافاة أصلا بين ما ثبت من عموم مشيئته سبحانه لجميع الاشياء وبين تكليفه العباد بما شاء من أمر ونهى ، فان تلك المشيئة لا تنافى حرية العبد واختياره للفعل ولهذا جمع الله بين المشيئتين بقوله (لمن شاء منكم ان يستقيم ، وما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين) .

كما أنه لا تلازم بين تلك المشيئة وبين الامر الشرعى المتعلق بما يحبه الله ويرضاه ، فقد يشاء الله ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه (فالاول) كمشيئته وجود ابليس وجنوده (والثانى) كمحبة ايمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله ، فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وكذلك لا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الاشياء وبين كون العبد فاعلا لفعله ، فالعبد هو الذى يوصف بفعله فهو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم ، والله خالقه وخالق فعله لانه هو الذى خلق فيه القدرة والارادة اللتين بهما يفعل .

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدى غفر الله له واجزل مثوبته :

ان العبد اذا صلى وصام وفعل الخير أو عمل شيئا من المعاصى كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح ، وذلك العمل السيء . وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره وهو يحس ضرورة انه غير مجبور على الفعل أو الترك وأنه لو شاء لم يفعل وكان هذا هو الواقع فهو الذى نص الله عليه فى كتابه ونص عليه رسوله حيث أضاف الاعمال صالحها وسيئها الى العباد وأخبر أنهم الفاعلون لها وأنهم ممدوحون عليها ان كانت صالحة ومثابون ، وملومون عليها ان كانت سيئة ومعاقبون عليها .

فقد تبين واتضح بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم وانهم اذا شاءوا فعلوا واذا شاءوا تركوا ، وان هذا الامر ثابت عقلا وحسا وشرعا ومشاهدة .

ومع ذلك اذا أردت أن تعرف انها وان كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلة فى القدر وكيف تشملها المشيئة ؟ فيقال بأى شيء وقعت هذه الاعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها ؟ فيقال بقدرتهم وارادتهم ، هذا يعترف به كل أحد ، فيقال : ومن خلق قدرتهم وارادتهم ومشيئتهم ؟ فالجواب الذى يعترف به كل أحد أن الله هو

وَالكَافِرُ وَالبَرُّ وَالفَاجِرُ وَالمُصَلِّي وَالصَّائِمُ وَلِلعِبَادِ قُدرَةٌ عَلَى أعمَالِهِم وَلَهُم إرَادَةٌ وَاللهُ خَالِقُهُم وَقُدرَتهم وَإرَادتهم كَمَا قَالَ تَعالَى (لِمَن شَاءَ مِنكُم أن يَستَقِيمَ وَمَا تَشَاؤُونَ إلاَّ أن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ)

الذى خلق قدرتهم وارادتهم ، والذى خلق ما به تقع الافعال هو الخالق للافعال فهذا هو الذى يحل الاشكال ويمكن العبد ان يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار ، ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين باسباب والطاف واعانات متنوعة وصرف عنهم الموانع كما قال صلى الله عليه وسلم (اما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل اهل السعادة) وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم الى أنفسهم لانهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه فولاهم ما تولوا لانفسهم . اهـ)

وخلاصة مذهب اهل السنة والجماعة فى القدر وافعال العباد ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شىء من الاعيان والاوصاف والافعال وغيرها وان مشيئته تعالى عامة شاملة لجميع الكائنات فلا يقع منها شىء الا بتلك المشيئة وان خلقه سبحانه الاشياء بمشيئته انما يكون وفقا لما علمه منها بعلمه القديم ، ولما كتبه وقدره فى اللوح المحفوظ وأن للعباد قدرة وارادة تقع بها افعالهم وانهم الفاعلون حقيقة لهذه الافعال بمحض اختيارهم وانهم لهذا يستحقون عليها الجزاء اما بالمدح والمثوبة واما بالذم والعقوبة وأن نسبة هذه الافعال الى العباد فعلا لا ينافى نسبتها الى الله ايجادا وخلقا لانه هو الخالق لجميع الاسباب التى وقعت بها .

وضل فى القدر طائفتان كما نقدم (الطائفة الاولى) القدرية نفاة القدر الذين هم مجوس هذه الامة كما ورد ذلك فى بعض الاحاديث مرفوعا وموقوفا وهؤلاء ضلوا بالتفريط وانكار القدر وزعموا أنه

وَهذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ الذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ. وَيَغلُو فِيهَا قَومٌ مِن أَهلِ الإِثبَاتِ حَتَّى سَلَبُوا العَبدَ قُدرَتَهُ وَاختِيَارَهُ وَيُخرِجُونَ عَن أَفعَالِ اللهِ وَأَحكَامِهِ حُكمَهَا وَمَصَالِحَهَا .

(فَصْــلٌ)

وَمِن أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَولٌ وَعَمَلٌ. قَولُ القَلبِ وَاللِّسَانِ ، وَعَمَلُ القَلبِ وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ ، وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَاعَةِ وَيَنقُصُ بِالمَعصِيَةِ ، وَهُم مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهلَ القِبلَةِ بِمُطلَقِ المَعَاصِي وَالكَبَائِرِ كَمَا يَفعَلُهُ الخَوَارِجُ بَل الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي

لا يمكن الجمع بين ما هو ثابت بالضرورة من اختيار العبد فى فعله ومسئوليته عنه ، وبين ما دلت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى مشيئته لان ذلك العموم فى زعمهم ابطال لمسئولية العبد عن فعله وهدم للتكاليف فرجحوا جانب الامر والنهى وخصصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشيئة بما عدا افعال العباد واثبتوا أن العبد خالق لفعله بقدرته وارادته ، فاثبتوا خالقين غير الله ولهذا سموا مجوس هذه الامة ، لان المجوس يزعمون أن الشيطان يخلق الشر والاشياء المؤذية ، فجعلوه خالقا مع الله ، فكذلك هؤلاء جعلوا العباد خالقين مع الله .

(والطائفة الثانية) يقال لها الجبرية وهؤلاء غلوا فى اثبات القدر حتى انكروا ان يكون للعبد فعل حقيقة بل هو فى زعمهم لا حرية له ولا اختيار ولا فعل كالريشة فى مهب الرياح وانما تسند الافعال اليه مجازا فيقال صلى وصام وقتل وسرق كما يقال طلعت الشمس وجرت الريح ونزل المطر . فاتهموا ربهم بالظلم وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه ، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم ، واتهموه بالعبث فى

كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتباعٌ بِالمَعْرُوفِ) وَقَالَ (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤمِنِينَ اقتَتَلُوا فَأَصلِحُوا بَينَهُمَا فَإِنْ بَغَت إحدَاهُمَا عَلَى الأُخرَى . فَقَاتِلُوا التي تَبغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصلِحُوا بَينَهُمَا بِالعَدلِ وَأَقسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسِطِينَ)

تكليف العباد وابطلوا الحكمة من الامر والنهى الا ساء ما يحكمون .

سبق أن ذكرنا فى مسألة الاسماء والاحكام أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الايمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالاركان وان هذه الثلاثة داخلة فى مسمى الايمان المطلق . فالايمان المطلق يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه ، فلا يستحق اسم الايمان المطلق الا مع جمع ذلك كله ولم ينقص منه شيئا .

ولما كانت الاعمال والاقوال داخلة فى مسمى الايمان كان الايمان قابلا للزيادة والنقص ، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية كما هو صريح الادلة من الكتاب والسنة وكما هو ظاهر مشاهد من تفاوت المؤمنين فى عقائدهم واعمال قلوبهم واعمال جوارحهم .

ومن الادلة على زيادة الايمان ونقصه أن الله قسم المؤمنين ثلاث طبقات فقال سبحانه (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) فالسابقون بالخيرات هم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وهؤلاء هم المقربون . والمقتصدون هم الذين اقتصروا على أداء الواجبات وترك المحرمات . والظالمون لانفسهم هم الذين اجترأوا على بعض المحرمات وقصروا ببعض الواجبات مع بقاء اصل الايمان معهم .

ومن وجوه زيادته ونقصه كذلك ان المؤمنين متفاوتون فى علوم الايمان فمنهم من وصل اليه من تفاصيله وعقائده خير كثير فازداد به

(إِنَّمَا المُؤمِنُونَ إِخوَةٌ فَأَصلِحُوا بَينَ أَخَوَيكُم) وَلا يسلبون الفَاسِقَ المِلِيَّ الإسلام بِالكُلِّيَّةِ وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُ المعتَزِلَةُ بَل الفَاسِقُ يَدخُلُ فِي اسمِ الإِيمَانِ المُطلَقِ كَمَا فِي قَولِهِ (فَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ) وَقَد

ايمانه وتم يقينه ومنهم من هو دون ذلك حتى يبلغ الحال ببعضهم أن لا يكون معه الا ايمان اجمالى لم يتيسر له من التفاصيل شىء ، وهو مع ذلك مؤمن . وكذلك هم متفاوتون فى كثير من أعمال القلوب والجوارح وكثرة الطاعات وقلتها .

واما من ذهب الى ان الايمان مجرد التصديق بالقلب وانه غير قابل للزيادة او النقص كما يروى عن ابى حنيفة وغيره فهو محجوج بما ذكرنا من الادلة قال عليه السلام (الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق) ومع أن الايمان المطلق مركب من الاقوال والاعمال والاعتقادات فهى ليست كلها بدرجة واحدة ، بل العقائد اصل فى الايمان فمن أنكر شيئا مما يجب اعتقاده فى الله او ملائكته أو كتبه او رسله او اليوم الآخر او مما هو معلوم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة الزنا والقتل الخ فهو كافر قد خرج من الايمان بهذا الانكار .

واما الفاسق الملى الذى يرتكب بعض الكبائر مع اعتقاده حرمتها فاهل السنة والجماعة لا يسلبون عنه اسم الايمان بالكلية ولا يخلدونه فى النار كما تقول المعتزلة والخوارج بل هو عندهم مؤمن ناقص الايمان قد نقص من ايمانه بقدر معصيته أو هو مؤمن فاسق فلا يعطونه اسم الايمان المطلق ولا يسلبونه مطلق الايمان .

وادلة الكتاب والسنة دالة على ما ذكره المؤلف رحمه الله من ثبوت مطلق الايمان مع المعصية قال تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء) فناداهم باسم الايمان مع وجود

لَا يَدخُلُ فِي اسمِ الإِيمَانِ المُطلَقِ كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَى (إِنَّمَا المُؤمِنُونَ الذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَت قُلُوبُهُم وَإِذَا تُلِيَت عَلَيهِم آيَاتُهُ زَادَتهُم إِيمَاناً) وَقَولُه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ (لَا يَزنِي الزَّانِي حِينَ يَزنِي وَهُوَ مُؤمِنٌ ، وَلَا يَسرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسرِقُ وَهُوَ مُؤمِنٌ ، وَلَا يَشرَبُ الخَمرَ حِينَ يَشرَبُهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ ، وَلَا يَنتَهِبُ نهبَةً ذاتَ شَرَفٍ يَرفَعُ النَّاسُ إِلَيهِ فِيهَا أَبصَارَهُم حِينَ يَنتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ) .

وَنَقُولُ هُوَ مُؤمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ ، أَو مُؤمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ ، فَلَا يُعطَى الاسمَ المطلَقَ وَلَا يُسلَبُ مُطلَقَ الاسمِ .

(فَصْــــلٌ)

« وَمِن أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ سَلَامَةُ قُلُوبِهِم وَأَلسِنَتِهِم لِأَصحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كَمَا وَصَفَهُم اللهُ بِهِ فِي قَولِهِ تَعَالَى (وَالذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِر لَنَا وَلِإِخوَانِنَا الذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ

المعصية وهى موالاة الكفار منهم الخ .

(فائــدة) الايمان والاسلام الشرعيان متلازمان فى الوجـود فلا يوجد احدهما بدون الآخر بـل كلما وجد ايمان صحيح معتد بـه وجد منه اسلام وكذلك العكس ولهذا قد يستغنى بذكر احدهما عـن الآخر لان أحدهما اذا أفرد بالذكر دخل فيه الآخر واما اذا ذكرا معـا مقترنين أريد بالايمان التصديق والاعتقاد واريد بالاسلام الانقيـاد الظاهرى من الاقرار باللسان وعمل الجوارح . ولكن هذا بالنسبة الـى مطلق الايمان اما الايمان المطلق فهو اخص مطلقا من الاسلام وقـد يوجد الاسلام بدونه كما فى قوله تعالى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) فاخبر باسلامهم مع نفى الايمان عنهم . وفى حديث جبريل ذكر المراتب الثلاث الاسلام والايمان والاحسان فدل

رَحِيمٌ) وَطَاعَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فِي قَولِهِ لاَ تَسُبُّوا أَصحَابِي فَوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو أَنَّ أَحَدَكُم أَنفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلاَ نَصِيفَهُ) وَيَقبلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِم وَمَرَاتِبِهِم وَيُفَضِّلُونَ مَن أَنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ وَهُوَ صُلحُ الحُدَيبِيَةِ وَقَاتَلَ عَلَى مَن أَنفَقَ مِن بَعدُ وَقَاتَلَ ، وَيُقَدِّمُونَ المُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنصَارِ وَيُؤمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لِأَهلِ بَدرٍ

على ان كلا منها اخص مما قبله

يقول المؤلف ان من اصول اهل السنة والجماعة التى فارقوا بها من عداهم من اهل الزيغ والضلال انهم لا يزرون بأحد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يطعنون عليه ولا يحملون له حقدا ولا بغضا ولا احتقارا فقلوبهم والسنتهم من ذلك كله براء ولا يقولون فيهم الا ما حكاه الله عنهم بقوله (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) الآية . فهذا الدعاء الصادر ممن جاء بعدهم ممن اتبعوهم باحسان يدل على كمال محبتهم لاصحاب رسول الله وثنائهم عليهم وهم اهل لذلك الحب والتكريم لفضلهم وسبقهم وعظيم سابقتهم واختصاصهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ولاحسانهم الى جميع الامة لانهم هم المبلغون لهم جميع ما جاء به نبيهم فما وصل لاحد علم ولا خبر الا بواسطتهم وهم يوقرونهم ايضا طاعة للنبى صلى الله عليه وسلم حيث نهى عن سبهم والغض منهم ، وبين ان العمل القليل من احد اصحابه يفضل العمل الكثير من غيرهم وذلك لكمال اخلاصهم وصادق ايمانهم .

واما قوله (ويفضلون من انفق من قبل الفتح — وهو صلح الحديبية — وقاتل ، على من انفق من بعده وقاتل) فقد ورد النص القرآنى بذلك قال تعالى فى سورة الحديد (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل اولئك اعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله

وَكَانُوا ثَلاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَر « اعمَلُوا مَاشِئتُم فَقَد غَفَرتُ لَكُم »
وَبِأَنَّهُ لَا يَدخُلُ النارَ أَحدٌ بَايَعَ تحتَ الشَّجَرَةِ كَمَا أَخبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى
اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ . بَل لَقَد رَضِيَ اللهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ وَكَانُوا اكثرَ مِن أَلفٍ
وَأَربَعِمِائَةٍ وَيَشهَدُونَ بِالجَنَّةِ لِمَن شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ
كَالعَشَرَةِ وَثَابِتِ بنِ قَيسٍ بنِ شَمَّاسٍ وَغَيرِهِم مِنَ الصَّحَابَةِ .

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقلُ عَن أَمِيرِ المؤمِنِين عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ
رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَغَيرِهِ مِن أَنَّ خَيرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعدَ نَبِيِّهَا أَبو بَكرٍ ثُمَّ
عُمَرُ وَيُثَلِّثُونَ بِعُثمَانَ وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُم،دَلَّت عَلَيهِ الآثَارُ
وَكَمَا أَجمَعَ ـــ

الحسنى) واما تفسير الفتح بصلح الحديبية فذلك هو المشهور وقد صح أن سورة الفتح نزلت عقيبه . وسمى هذا الصلح فتحا لما ترتب عليه من نتائج بعيدة المدى فى عزة الاسلام وقوته وانتشاره ودخول الناس فيه .

واما قوله (ويقدمون المهاجرين على الانصار) فلان المهاجرين جمعوا الوصفين النصرة والهجرة ، ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين وقد جاء القرآن بتقديم المهاجرين على الانصار فى سورة التوبة والحشر وهذا التفضيل انما هو للجملة على الجملة فلا ينافى أن فى الانصار من هو افضل من بعض المهاجرين .

وقد روى عن ابى بكر انه قال فى خطبته يوم السقيفة (نحن المهاجرون واول الناس اسلاما اسلمنا قبلكم وقدمنا فى القرآن عليكم فنحن الامراء وانتم الوزراء) .

واما قوله (ويؤمنون بأن الله قال لاهل بدر الخ) فقد ورد أن عمر رضى الله عنه لما اراد قتل حاطب بن ابى بلتعة وكان قد شهد بدرا لكتابته كتابا الى قريش يخبرهم فيه بمسير الرسول صلى الله عليه

الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي البَيعَةِ مَعَ أَنَّ بَعضَ أَهلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَد اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا ـ بَعدَ اتِّفَاقِهِم عَلَى تَقدِيمِ أَبِي بَكرٍ وَعُمَر ـ أَيُّهُمَا أَفضَلُ ؟ فَقَدَّمَ قَومٌ عُثْمَانَ وَسَكَتُوا وَرَبَّعُوا بِعَلِيٍّ. وَقَدَّمَ قَومٌ ـ

وسلم فقال له الرسول « وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

واما قوله « وبأنه لا يدخل النار احد بايع تحت الشجرة الخ » فلاخباره صلى الله عليه وسلم بذلك ولقوله تعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » الآية . فهذا الرضى مانع من ارادة تعذيبهم ومستلزم لاكرامهم ومثوبتهم .

واما قوله ويشهدون بالجنة لمن شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم كالعشرة وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة) أما العشرة فهم ابو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح ، وأما غيرهم فكثابت بن قيس وعكاشة بن محصن وعبد الله بن سلام وكل من ورد الخبر الصحيح بأنه من أهل الجنة .

واما قوله (ويؤمنون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على ابن ابى طالب وغيره من ان خير هذه الامة بعد نبيها ابو بكر وعمر فقد ورد ان عليا رضى الله عنه قال ذلك على منبر الكوفة وسمعه منه الجم الغفير وكان يقول (مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى علمنا ان افضلنا بعده ابو بكر وما مات ابو بكر حتى علمنا ان افضلنا بعده عمر) .

واما قوله (ويثلثون ويربعون بعلى الخ) فمذهب جمهور اهل السنة ان ترتيب الخلفاء الراشدين فى الفضل على حسب ترتيبهم

عَلِيّاً وَقَومٌ تَوَقَّفُوا ، لكن استقرّ أمرُ أهلِ السُّنَةِ عَلَى تقديم عُثمانَ ثمَّ عَلِيٌ ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ المَسْأَلَةُ ـ مَسأَلَة عُثمَانَ وَعَلِيّ لَيسَتْ مِن الأصُولِ التي يُضَلَّلُ المُخَالِفُ فِيهَا عِندَ جُمهُورِ أَهلِ السنَّة لكِن التي يُضَلَّلُ فِيها مَسْأَلَةُ الخِلافَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُم يُؤمِنُونَ أَنَّ الخَلِيفَةَ بَعدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ ثُمَّ عُثمَانُ ثُمَّ عَلِيٌ وَمَن طعَنَ فِي خِلافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاءِ فَهُوَ أَضَلُّ مِن حِمَارِ أَهلِه .

وَيُحِبُّونَ أَهلَ بَيتِ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم وَيَتَوَلَّونَهُم وَيَحفَظُونَ فِيهِم وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ حَيثُ قَالَ يَومَ غَدِيرِ خُمٍّ (أُذَكِّرُكُمُ اللّهَ فِي أَهلِ بَيتِي)

فى الخلافة وهم لهذا يفضلون عثمان عَلَى عَلِيٍّ محتجّين بتقديم الصحابة عثمان فى البيعة عَلَى عَلِيٍّ وبعض اهل السنة يفضل عليا لانه يرى ان ما ورد من الآثار فى مزايا عَلِيٍّ ومناقبه أكثر . وبعضهم يتوقف فى ذلك وعلى كل حال فمسألة التفضيل ليست كما قال المؤلف من مسائل الاصول التى يضلل فيها المخالف وانما هى مسألة فرعية يتسع لها الخلاف ، واما مسألة الخلافة فيجب الاعتقاد بأن خلافة عثمان كانت صحيحة لانها كانت بمشورة من الستة الذين عينهم عمر رضى الله عنه ليختاروا الخليفة من بعده ، فمن زعم أن خلافة عثمان كانت باطلة وأن عَلِياً كان أحق بالخلافة منه فهو مبتدع ضال يغلب عليه التشيع مع ما فى قوله من ازراء بالمهاجرين والانصار .

أهل بيته صلى الله عليه وسلم هم من تحرم عليهم الصدقة وهم آل عَلِيٍّ وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس وكلهم من بنى هاشم ويلحق بهم بنو المطلب لقوله عليه السلام (انهم لم يفارقونا جاهلية ولا اسلاما) فأهل السنة والجماعة يرعون لهم حرمتهم وقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحبونهم لاسلامهم وسبقهم وحسن بلائهم فى نصرة دين الله عز وجل . وغدير خم (بضم الخاء) قيل اسم رجل صباغ أضيف

وَقَالَ أَيضاً لِلعَبَّاسِ عَمِّهِ . وَقَد اشتَكَى إِلَيهِ أَنَّ بَعضَ قُرَيشٍ يَجفُو بَنِي هَاشِمٍ ـ فَقَالَ (وَالذِي نَفسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُم لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي) وَقَالَ (إِنَّ اللَّهَ اصطَفَى بَنِي إِسمَاعِيلَ وَاصطَفَى مِن بَنِي إِسمَاعِيلَ كِنَانَةَ وَاصطَفَى مِن كِنَانَةَ قُرَيشاً وَاصطَفَى مِن قُرَيشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصطَفَانِي مِن بَنِي هَاشِمٍ) .

وَيَتَوَلَّونَ أَزوَاجَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أُمَّهَاتِ المُؤمِنِينَ وَيُؤمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ خُصُوصاً خَدِيجَة رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا أُمَّ أَكثَرِ أَولاَدِهِ وَأَوَّل مَن آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمرِهِ وَكَانَ لَهَا مِنهُ المَنزِلَةُ

اليه الغدير الذى بين مكة والمدينة بالجحفة . وقيل خم اسم غيضة هناك نسب اليها الغدير ، والغيضة الشجر الملتف .

واما قوله عليه السلام لعمه (والذى نفسى بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي) فمعناه لا يتم ايمان احد حتى يحب اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أولا لانهم من أوليائه واهل طاعته الذين تجب محبتهم وموالاتهم فيه . وثانيا لمكانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم واتصال نسبهم به .

ازواجه صلى الله عليه وسلم هن من تزوجهن بنكاح فاولهن خديجة بنت خويلد رضى الله عنها تزوجها بمكة قبل البعثة وكانت سنه خمسا وعشرين وكانت هى تكبره بخمسة عشر ةعاما ولم يتزوج عليها حتى توفيت وقد رزق منها بكل أولاده الا ابراهيم وكانت أول من آمن به وقواه على احتمال أعباء الرسالة وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين عن خمس وستين سنة فتزوج بعدها سودة بنت زمعة وعقد على عائشة رضى الله عنها وكانت بنت ست سنين حتى اذا هاجر الى المدينة بنى بها وهى بنت تسع . ومن زوجاته ايضا ام سلمة رضى الله عنها تزوجها بعد زوجها ابى سلمة وزينب بنت جحش تزوجها بعد تطليق

العَالِيَةُ ، وَالصِّدِّيقَة بنت الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنهَا التي قَالَ فِيهَا النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ : (فَضلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ) .

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِن طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الذِينَ يُبغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُم، وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الذِين يُؤذُونَ أَهلَ البَيتِ بِقَولٍ أو عَمَلٍ وَيُمسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَينَ الصَّحَابَةِ وَيَقُولُونَ إِنَّ هَذِهِ الآثارَ المَروِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِم مِنهَا مَا هُوَ كَاذِبٌ وَمِنهَا مَا قَد زِيدَ فِيهِ وَنَقَصَ وَغُيِّرَ عَن وَجهِهِ وَالصَّحِيحُ مِنهُ هُم فِيهِ مَعذُورُونَ إِمَّا مُجتَهِدُونَ مُصِيبُونَ وَإِمَّا مُجتَهِدُونَ مُخطِئُونَ وَهُم مَعَ ذَلِكَ لَا يَعتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعصُومٌ عَن كَبَائِرِ الاثمِ وَصَغَائِرِهِ ، بَل يَجُوزُ عَلَيهِم الذُّنُوبُ فِي الجُملَةِ وَلَهُم مِنَ السَّوَابِقِ وَالفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغفِرَةَ مَا يَصدُرَ مِنهُم إِن صَدَرَ حَتَّى إِنَّهُم يُغفَرُ لَهُم السَّيِّئَاتُ مَا لاَ يُغفَرُ لِمَن بَعدَهُم لِأَنَّ لَهُم مِنَ الحَسَنَاتِ التي تَمحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيسَ لِمَن بَعدَهُم .

وَقَد ثَبَتَ بِقَولِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُم خَيرُ القُرُونِ وَأَنَّ المُدَّ مِن أَحَدِهِم إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفضَلَ مِن جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَباً مِمَّن بَعدَهُم

زيد ابن حارثة لها أو على الاصح زوجه الله اياها . وجويرية بنت الحارث وصفية بنت حُيَي وحفصة بنت عمر وزينب بنت خزيمة وكلهن امهات المؤمنين ، وهن ازواجه صلى الله عليه وسلم فى الآخرة وافضلهن على الاطلاق خديجة وعائشة رضى الله عنهما .

يريد ان اهل السنة والجماعة يتبرؤون من طريقة الروافض التى هى الغلو فى عَلِيٍّ واهل بيته وبغض منْ عداه من كبار الصحابة وسبهم وتكفيرهم . واول من سماهم بذلك زيد بن عَلِيّ رحمه الله لانهم لما طلبوا منه ان يتبرأ من امامة الشيخين ابى بكر وعمر ليبايعوه ابى ذلك فتفرقوا عنه فقال رفضتمونى ، فمن يومئذ قيل لهم رافضة . وهم

ثُمَّ إِذَا كَانَ قَد صَدَرَ مِن أَحَدِهِم ذَنبٌ فَيَكُونُ قَد تَابَ مِنهُ أَو أَتَـى بِحَسَنَاتٍ تَمحُوهُ أَو غُفِرَ لَهُ بِفَضلِ سَابِقَتِهِ أَو بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ الذِي هُم أَحَقُّ النَاسِ بِشَفَاعَتِهِ أَو ابتُلِيَ بِبَلاَءٍ فِي الدُّنيَا كُفِّرَ بِهِ عَنهُ . فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ المُحَقَّقَةِ فَكَيفَ الأُمُورُ التِي كَانُوا فِيهَا مُجتَهِدِينَ إِن أَصَابُوا فَلَهُم أَجرَانِ وَإِن أَخطَأُوا فَلَهُم أَجرٌ وَاحِدٌ وَالخَطَأُ مَغفُـــورٌ .

فرق كثيرة منهم الغالية ومنهم دون ذلك .

ويتبرؤون كذلك من طريقـــة النواصب الذين ناصبوا اهــل بيت النبوة العداء لاسباب وامور سياسية معروفة ولم يعد لهــؤلاء وجـــود الآن .

ويمسك اهل السنة والجماعة عن الخوض فيما وقع من نزاع بين الصحابة رضى الله عنهم لاسيما ما وقع بين عَلِيّ وطلحة والزبير بعد مقتل عثمان وما وقع بعد ذلك بين عَلِيّ ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم ويرون ان الآثار المروية فى مساويهم اكثرها كذب او محرف عن وجهه ، واما الصحيح منها فيعذرونهم فيه ويقولون انهم متأولون مجتهدون ، وهم مع ذلك لا يدعون لهم العصمة من كبـــار الذنوب وصغارها ولكـــن ما لهم من السوابق والفضائل وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه قد يوجب مغفرة ما يصدر منهم من زلات فهم بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير القرون وافضلها ومُدّ احدهم أو نصيفه افضل من جبل أُحُدٍ ذهبا يتصدق به من بعدهم فسيئاتهم مغفورة الى جانب حسناتهم الكثيرة .

يريد المؤلف رحمه الله ان ينفى عن الصحابة رضى الله عنهم ان يكون احدهم قد مات مصرا على ما يوجب سخط الله عليه من الذنوب بل اذا كان قد صدر الذنب من احدهم فعلا فلا يخلو عن احد هذه

ثُمَّ إِنَّ الْقَدَرَ الَّذِي يُنكَرُ مِن فِعلِ بَعضِهِم قَلِيلٌ نَزرٌ مَغفُورٌ فِي جَنبِ فَضَائِلِ القَومِ وَمَحَاسِنِهِم مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَالهِجرَةِ وَالنُّصرَةِ وَالعِلمِ النَّافِعِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَمَن نَظَرَ فِي سِيرَةِ القَومِ بِعِلمٍ وَبَصِيرَةٍ وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيهِم بِهِ مِنَ الفَضَائِلِ عَلِمَ يَقِيناً أَنَّهُم خَيرُ الخَلقِ بَعدَ الأَنبِيَاءِ . لاَ كَانَ وَلاَ يَكُونُ مِثلُهُم ، وَأَنَّهُم الصَّفـوَةُ مِن قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيرُ الأُمَمِ وَأَكرَمُهَا عَلَى اللهِ .

وَمِن أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالتَّصدِيقِ بِكَرَامَاتِ الأَولِيَاءِ وَمَا يُجرِي اللهُ عَلَى أَيدِيهِم مِن خَوَارِقِ العَادَاتِ .

الامور التى ذكرها فاما ان يكون قد تاب منه قبل الموت او اتـى بحسنات تذهبه وتمحوه او غفر له بفضل سالفته فى الاسلام كما غفر لاهل بدر واصحاب الشجرة او بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم اسعد الناس بشفاعته واحقهم بها او ابتلى ببلاء فى الدنيا فى نفسه او ماله او ولده فكفر عنه به . فاذا كان هذا هو ما يجب اعتقاده فيهم بالنسبة الى ما ارتكبوه من الذنوب المحققة فكيف فى الامور التـى هى موضع اجتهاد والخطأ فيها مغفور ، ثم اذا قيس هذا الـذى اخطأوا فيه الى جنب ما لهم من محاسن وفضائل لم يعد ان يكـون قطرة فى بحر . فالله الذى اختار نبيه صلى الله عليه وسلم هو الذى اختار له هؤلاء الاصحاب ، فهم خير الخلق بعد الانبياء والصفوة المختارة من هذه الامة التى هى افضل الامم .

ومن تأمل كلام المؤلف رحمه الله فى شأن الصحابة عجب اشد العجب مما يرميه به الجهلة المتعصبون وادعائهم عليه انه يتهجم على اقدارهم ويغض من شأنهم ويخرق اجماعهم الى آخر ما قالوه مـن مزاعم ومفتريـات .

وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة ، ودلت الوقائع قديمـا

فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ وَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الْأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ فِرَقِ الْأُمَّةِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وحديثا على وقوع كرامات لله لاوليائه المتبعين لهدى أنبيائهم ، والكرامة أمر خارق للعادة يجريه الله على يد ولى من اوليائه معونة له على امر دينى أو دنيوى ، ويفرق بينها وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوى الرسالة بخلاف الكرامة .

ويتضمن وقوع هذه الكرامات حكم ومصالح كثيرة أهمها :

اولا : انها كالمعجزة تدل أعظم دلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته ، وانه فعال لما يريد ، وان له فوق هذه السنن والاسباب المعتادة سننا اخرى لا يقع عليها علم البشر ، ولا تدركها أعمالهم . فمن ذلك قصة اصحاب الكهف ، والنوم الذى اوقعه الله بهم تلك المدة الطويلة مع حفظه تعالى لابدانهم من التحلل والفناء . ومنها ما أكرم الله به مريم بنت عمران من ايصال الرزق اليها وهى فى المحراب حتى عجب من ذلك زكريا عليه السلام ، وسألها : انى لك هذا ، وكذلك حملها بعيسى بلا اب وولادتها اياه ، وكلامه فى المهد وغير ذلك .

ثانيا : ان وقوع كرامات الاولياء هو فى الحقيقة معجزة للانبياء ، لان تلك الكرامات لم تحصل لهم الا ببركة متابعتهم لانبيائهم وسيرهم علـى هديهـم .

ثالثا : ان كرامات الاولياء هى البشرى التى عجلها الله لهم فى الدنيا فان المراد بالبشرى كل امر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم ومن جملة ذلك الكرامات .

(فَصْــــلٌ)

ثُمَّ مِن طَرِيقَةِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بَاطِناً وَظاهِراً وَاتِّبَاعُ سَبِيـلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِـنَ المُهَاجِرِيـنَ وَالأَنصَارِ وَاتِّبَاعُ وَصِيَّـةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيـهِ وَسَلَّـمَ حَيـثُ قَـالَ: عَلَيكُـم بِسُنَّتِـي وَسُنَّـةِ الخُلَفَـاءِ الرَّاشِدِينَ المهدِيِّينَ مِن بَعدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِـذِ وَإِيَّاكُم وَمُحدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ . وَيَعلَمُونَ أَنَّ أَصدَقَ الكَلَامِ كَلَامُ اللهِ وَخَيرَ الهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَيُؤثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَى غَيرِهِ مِن كَلَامِ أَصنَافِ النَّاسِ ، وَيُقَدِّمُونَ هُدَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عَلَى هُدَى كُلِّ أَحَدٍ ، وَلِهَذَا سُمُّوا أَهلَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَسُمُّوا أَهلَ الجَمَاعَةِ لِأَنَّ الجَمَاعَةَ هِيَ الإجمَاعُ وَضِدَّهَا الفُرقَةُ ، وَإِن كَانَ لَفظُ الجَمَاعَةِ قَد صَارَ اسماً لِنَفسِ القَومِ المُجتَمِعِينَ ، وَالإِجمَاعُ هُوَ الأَصلُ الثَّالِثُ الذِي يُعتَمَدُ عَلَيهِ فِي العِلمِ وَالدِّينِ ، وَهُم يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيهِ النَّاسُ مِن أَقوَالٍ وَأَعمَالٍ بَاطِنَةٍ أَو ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ. وَالإِجمَاعُ الذِي يَنضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ إِذ بَعدَهُم كَثُرَ الاختِلَافُ وَانتَشَرَ فِي الأُمَّةِ .

هذا ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع فى هذه الامة الى يوم القيامة والمشاهدة اكبر دليل ، وانكر الفلاسفة كرامات الاولياء كما أنكروا معجزات الانبياء ، وانكر الكرامات ايضا المعتزلة وبعض الاشاعرة بدعوى التباسها بالمعجزة ، وهى دعوى باطلة ، لان الكرامة كما قلنا لا تقترن بدعوى الرسالة .

لكن يجب التنبه الى ان ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون من أصحاب الطرق المبتدعة الذين يسمون انفسهم بالمتصوفة من اعمال ومخاريق شيطانية كدخول النار وضرب انفسهم بالسلاح والامساك بالثعابين والاخبار بالغيب الى غير ذلك ليس من الكرامات فى شىء

(فصــــل)

ثمَّ هُم مَعَ هذِهِ الأُصُولِ يَأمُرُونَ بِالمعرُوفِ وَيَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ ، وَيَرَونَ إقَامَةَ الحَجِّ وَالجِهَادِ وَالجُمَعِ وَالأَعيَادِ مَــعَ الأُمَرَاءِ أبرَاراً كَانُوا أَو فُجَّاراً . وَيُحَافِظُونَ عَلَى الجَمَاعَاتِ وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ وَيَعتَقِدُونَ مَعنَى قَولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « المُؤمِنُ لِلمُؤمِنِ كَالبُنيَانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضاً » وَشَبَّكَ بَينَ أَصَابِعِهِ . وَقَولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « مَثَلُ المُؤمِنِينَ فِي تَوَادِّهِم وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِم كَمَثَلِ الجَسَدِ إِذَا اشتَكَى مِنهُ عُضوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالحُمَّى وَالسَّهَرِ » وَيَأمُرُونَ بِالصَّبرِ عِندَ البَلَاءِ وَالشُّكرِ عِندَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ وَيَدعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخــلَاقِ وَمَحَاسِنِ الأَعمَالِ وَيَعتَقِدُونَ مَعنَــى قَولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « أَكمَلُ المُؤمِنِين إيماناً أَحسَنُهُم خُلُقاً » وَيَندُبُــونَ إِلَى أَن تَصِلَ مَــن قَطَعَكَ ، وَتُعطِــي مَن حَرَمَــكَ ،

فان الكرامة انما تكون لاولياء الله بحق وهؤلاء أولياء الشيطــان .

قوله (ثم من طريقة اهل السنة الخ) هذا بيان لمنهج اهل السنة والجماعة فى استنباط الاحكام الدينية كلها ، اصولها وفروعها بعــد طريقتهم فى مسائل الاصول ـــ وهذا المنهج يقوم على اصول ثلاثــة : أولها ـــ كتاب الله عز وجل الذى هو خير الكلام واصدقه ، فهــم لا يقدمون على كلام الله كلام احد من الناس . وثانيها ـــ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما اثر عنه من هدى وطريقة لا يقدمون على ذلك هدى أحد من الناس . وثالثها ـــ ما وقع عليه اجماع الصدر الاول من هذه الامة قبل التفرق والانتشار وظهور البدعة والمقالات ، وما جاءهم بعد ذلك مما قاله الناس وذهبوا اليه من المقالات ووزنوها بهذه الاصول الثلاثة التى هى الكتاب والسنة والاجماع ، فان وافقها قبلوه وان خالفها ردوه أيا كان قائله وهذا هو المنهج الوسط والصراط المستقيم

وَتعفُو عَمَّن ظَلَمَكَ ، وَيأمُرُونَ ببِرِّ الوَالِدَينِ وَصِلَةِ الأَرحَامِ وَحُسنِ الجِوَارِ وَالإحسَانِ إِلَى اليَتَامَى وَالمَسَاكِين وَابنِ السَّبِيلِ وَالرِّفقِ بِالمَملُوكِ وَينهَونَ عَنِ الفَخرِ وَالخُيَلَاءِ وَالبَغيِ وَالاستِطَالَةِ عَلَى الخَلقِ بِحَقٍّ أو بِغَيرِ حَقٍّ وَيَأمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخلَاقِ وَينهَونَ عَن سَفسَافِهَا وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفعَلُونَهُ مِن هَذَا وَغَيرِهِ فَإنَّمَا هُم فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَطَرِيقَتُهُم هِيَ دِينُ الإِسلَامِ الذي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لَكِن لَمَّا أَخبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبعِينَ فِرقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ الجَمَاعَةُ . وَفِي حَدِيثٍ عَنهُ أَنَّهُ قَالَ « هُم مَن كَانَ عَلَى مِثلِ مَا أَنا عَلَيهِ اليومَ وَأَصحَابِي » صَارَ المُتَمَسِّكُونَ بِالإِسلَامِ المَحضِ الخَالِصِ عَنِ الشَّوبِ ، هُم أَهلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ ،

الذى لا يضل سالكه ولا يشقى من اتبعه ، وسط بين من يتلاعب بالنصوص فيتأول الكتاب وينكر الاحاديث الصحيحة ولا يعبأ باجماع السلف ، وبين من يخبط خبط عشواء فيتقبل كل راى ويأخذ بكل قول لا يفرق فى ذلك بين غث وسمين وصحيح وسقيم .

قوله (ثم هم مع هذه الأصول الخ) جمع المؤلف فى هذا الفصل جُمَّاع مكارم الاخلاق التى يتخلق بها أهل السنة والجماعة من الامر بالمعروف وهو ما عرف حسنه بالشرع والعقل والنهى عن المنكر وهو كل قبيح عقلا وشرعا على حسب ما توجبه الشريعة من تلك الفريضة كما يفهم من قوله عليه السلام « من راى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » ومن شهود الجمع والجماعات والحج والجهاد مع الامراء ايا كانوا لقوله عليه السلام « صلوا خلف كل بر وفاجر » ومن النصح لكل مسلم لقوله عليه السلام « الدين النصيحة » ومن فهم صحيح لما توجبه الاخوة الايمانية من تعاطف وتواد وتناصر كما فى هذه الاحاديث التى يشبه فيها الرسول المؤمنين بالبنيان المرصوص المتماسك

وَفِيهِم الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ ، وَمِنهُم أَعلَامُ الهُدَى وَمَصَابِيحُ الدُّجَى أُولُو المَنَاقِبِ المَأثُورَةِ وَالفَضَائِلِ المَذكُورَةِ ، وَفِيهِم الأَبدَالُ ، وَفِيهِم أَئِمَّةُ الدِّينِ الذِينَ أَجمَعَ المُسلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِم ، وَهُم الطَّائِفَةُ المَنصُورَةُ الذِينَ قَالَ فِيهِم النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنصُورَةٌ لاَ يَضُرُّهُم مَن خَالَفَهُم وَلاَ مَن خَذَلَهُم حَتَّى تَقُوَمَ السَّاعَةُ » .

نَسأَلُ اللهَ أَن يَجعَلَنَا مِنهُم وَأَن لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعدَ إِذ هَدَانَا وَأَن يَهَبَ لَنَا مِن لَدُنهُ رَحمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ ، وَاللهُ أَعلَمُ .

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ تَسلِيماً كَثِيراً .

اللبنات او بالجسد المترابط الاعضاء ومن دعوة الى الخير والى مكارم الاخلاق ، فهم يدعون الى الصبر على المصائب والشكر على النعماء والرضا بقضاء الله وقدره الى غير ذلك مما ذكره .

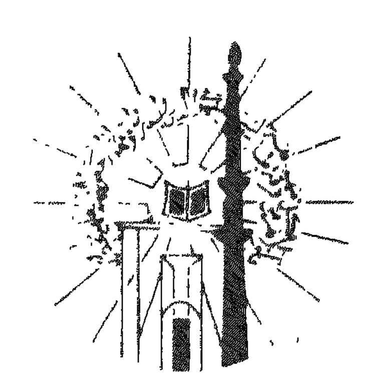
واما قوله (وفيهم الصديقون الخ) فالصديق صيغة مبالغة من الصدق يراد به الكثير التصديق وابو بكر رضى الله عنه هو الصديق الاول لهذه الامة ، وأما الشهداء فهو جمع شهيد وهو من قتل فى المعركة ، واما الابدال فهم جمع بدل وهم الذين يخلف بعضهم بعضا فى تجديد هذا الدين والدفاع عنه كما فى الحديث « يبعث الله لهذه الامة على راس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها » والله اعلم .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

الفهرس

الصفحة | الموضوع

دار الإعتصـــام
للطبع والنشر والتوزيع
القاهرة



من مطبوعات الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

دار الاعتصام
للطبع والنشر والتوزيع
القاهرة